نسمات الأدب
Samar Hamdan
نفاج ريد
اسماعيل عمر اسماعيل

نفاج ريد

إسماعيل عمر إسماعيل

تستعرض لكم دار نسمات الأدب للنشر

الإلكتروني بعزيمة وإبداع جديد

الكتاب :نفاج ريد

المؤلف: إسماعيل عمر إسماعيل .

غلاف الكتاب:سمر حمدان

موك اب الكتاب:منى وجيه

تنسيق داخلي:جيهان سمير

إدارة الدار: رزان محمد كليب

مع نسمات الأدب، أفكارك تنبض بالحياة!

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

مقدمة

عزيزي القاريء :

هـذا العمـل بـين يـديك الآن قـد إسـتغرق منـي ليـالٍ طِـوال قضـيتُها سـاهِراً أستنشِـقُ رائحـة مِـدادٍ إلكترونـي وانـا أُسـطِر هـذهِ الصـفحات الحزينـة البائسـة، مـا بـين هـذه السـطور غمامـاتٍ مـن الـدموع وأطيـاف حُـزنٍ مأسـاوي كـان لابُـد لـي مـن سـردِهِ؛ ألم يكُن واجب الكاتب عكس الواقع؟

بـالرغم مـن كـل هـذا فـإن هـذا العمـل ربمـا قـد يكـون أفضـل مـا كتبتُـه فـي حيـاتي، وإن كنـتَ ممـن لا يعشـقون الحـروف السوداوية فلا انصحك بقراءته ..!

الإهداء

إلـــى نفســـي التـــي ســـاهرَت وتعِبَـــت وعانَـــت الحُزن الذي يُلازم هذه الحروف.

إلـــى أهـــل الريـــف، أولئـــك الـــذين يؤمنـــون بـــــالعفو ويحفظـــــون أصـــــل العـــــادات السودانية الطيِّبة.

إلى المُهمَشين قاطِني أطراف المُدن.

إلـــى مَـــن لا يملـــك ثمـــن هـــذا الكتـــاب، أتمنـــى أن تســـتطِع قراءتـــه ولـــو عـــن طريـــق الاستعارة.

إلى كل مَن ساهم في إنجاز هذا العمل.

لـــم يكُـــن الريـــف حاضـــناً للمنتزهـــات والكافيهـــات الترفيهيـــة ولـــو أصـــبح كـــذلك لِمـــا كـــان ريفـــاً، ثقافتُـــهُ محـــدودة لكنـــه يتفـــوق علـــى المـــدن فـــي بعـــض الأشـــياء، لا توجـــد بـــه ملاعـــب رياضـــية أو فعاليـــات، لا طُـــرق أســـفلت ولا بنايـــات شـــاهقات، ولكنـــه يفـــيضُ حُبـــاً وإلفـــةً و مـــودة، أهلـــه رُحمـــاء فيمـــا بيـــنهم يُحِـــبُ أحـــدهم الآخـــر.. الحُـــب فـــي كل مكان.

ممـــا يُميَّـــزُ الريـــف عـــن المُـــدن والعواصـــم هو طِيبة أهله

وحُســـنِ معشـــرهم إذ أنهـــم ينتهجـــون ذات التقاليـــد والعـــادات التـــي تكـــاد أن تنـــدثر فـــي المـــدن التـــي بـــدأت تكتســـي الثـــوب الغربـــي. يهرعـــون لنجـــدة المســـتغيث فـــي كـــل مكـــانٍ

وزمانٍ وهو ما يُعرفُ عن كل أهل السودان ولكنه ثابت في الريف وواضح كالشمس.. بيوتهم وقلوبهم مفتوحة على مدار القرن ولكن وكما إقتضت الحياة، لابد من وجود نقطة سوداء تُشوّهُ ذلك البياض، إنهم شديدو التعصُب في الخِصام.. ثُلةٌ منهم تؤمن بالثأر والقصاص و ثلةٌ قليلة تُفَضّلُ العفو والصفح، وهذا الأمر لا ينطبق على الأرياف ككل.

في قرية " ودحامد " تعرّضَ أحدِ أبنائها للقتل بمزرعته قبل ثلاثة أيام وهاهُم أهلهُ يتشاركون المجلس مع أهل القاتل للعفو والصفح، كان كبار القريتين يجلسون بوقار أمام العمدة " ودالإمام "

ليُصلح فيما بينهم، ولكن قبل أن يُتمِموا جلستهم ويتصافحون دخل عليهم رسولٌ يلقي على آذانهم كلماتاً كالصَاعِقة:

-أحد أبناء قرية ودالبخيت قَتل " يوسف ودحامد "

موسى هذا الأخ الأكبر ليونس ودحامد،بطل ذلك المكان.

ستزداد الأمور صعوبة، فعلت قرية ودالبخيت ما لم يفعله أحد من قبل، قتلوا الأول وحينما كان أهلهم منخرطون في إنهاء الأمر بطريقة هادئة قاموا بقتل إبن عمه أيضاً، قتيلان في ثلاثة أيام.

******

" يونس ود حامد ":

كـان منهمكـاً فـي فـتح مجـرىً للميـاه بجانـب مزرعتـه حينمـا ألقـى معولـه جانبـاً وإرتمـى مـن شـدة التعـبِ علـى الأرض مسـتلقياً علـى ظهـره يتقطـرُ العَـرقُ مـن جبينـهِ، عينـاهُ الواسـعتان تتفحصـان السـماء وأشـعة الشـمس، ملامحـه هادئـة بشـحوب شَـوَّه جمالهـا.. كَسَـتها الشـمس سُـمرةً على سمارها.

لـم يـتمكن مـن الجلـوس بـالمنزل بعـد أن قُتِـل إبـن عمـه قبـل ثلاثـة أيـام، كـان يـأتي إلـى المزرعـة بعمـلٍ أو دونـه، يُخـرِج ثِقـل دواخلـه وحُزنـه علـى الأرض والتـراب، لـيس دائمـاً يكـون التجـاوز سـهلاً، بعـض الخسـارات لا يمكـن تعويضـها، بعـض

الراحلون لا يعودون أبداً، يبقى أثرهم فقط مع الكثير من الألم والحزن.

بينما هو مستلقي أقبل عليه شخصاً لاهثاً أخبره قبل أن يصل إليه:

-أخوك قتلوهُ.

إنتفض من مكانه، تفحصَ وجه مُحدثه جيداً، إنه أحد أبناء قريته، ليس شخصاً مصاباً بالجنون أو غريباً عنه، إذاً ما الذي يتفوه بهِ؟

كأن ذلك الرجل عَلِم ما يفكر به يونس فأعاد صياغة كلماته:

-أخوك يوسف قتلوه أولاد ودالبخيت.

أغمضَ يونس عينيهِ، دمعة يتيمة سرقت نفسها منهما وتسللت عبر فواصل رِمشيه حتى إستقرت على

وجنتيهِ، لم يحتمل الخسارة الأولى فأتتهُ الثانية تجر أذيالها، تمتم مع نفسه " إن المصائب لا تأتي فِرادا.. لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون "

تقدم ناحية الطريق بُخطى تعجزُ عن السير، قدَماهُ لا تحمِلانهُ، أوصى ذلك الرجل بالذهاب لقرية العمدة وإخبار أبيه وعمه بالأمر وعاد إلى القرية يجرجِرُ إنكساره، لا يستطيع المرء تحمُل كل ذلك الألم، لقد عاد قبل يومين من المقابر بعد أن دفن أخاهُ إبن عمه، الآن سيذهب إليها مرة أخرى ليودع شقيقه.

لو كان هناك حداً لقوة تحمل الروح للآلام لكان فقدان الأخ هو عابر تلك الحدود.

الوضع بين القريتين إزداد سوءاً، لا مجال للعفو بعد هذا.. لا توجد مقدرة لذلك، ألم يكن العفو عند المقدرة؟ لا مقدرة لأهل قرية ود حامد ليصفحوا عن مقتل أثنين من أبناءهم في ثلاثة أيام، لكل شيء حدود ولكل فعل رد فعل.

تفصلُ بين القريتين عشرة كيلو مترات بلغة المسافة وآلاف الأميال بلغة الإلفة والمودة.

تجمع الأهالي بمنزل الفقيدين، كان حامد مصطفى يعيش مع أخيه يونس مصطفى في بيتٍ واحد ويعتبر من أكبر بيوت القرية، قبل يومين على ذات المنزل كانت تُقام مراسم عزاء الفقيد الأول حامد.

أعاد القدر نفسه وعاد ليأخذ إبن الأخ الآخر كشيءٍ من الإنصاف، جاءت القبائل والقُرى المجاورة.

كان يونس ودحامد يتخوف من غضب أهله وحزنهم، لم يحدث أن كانت هناك أحداث كهذه .. مرة واحدة إفتتنت قبيلتان بينهما، فقَدَ عشرات الأشخاص حيواتهم على أثر تلك الفتنة، يوجد قاضٍ بالمدينة كما توجد سلطة تختصُ بإعادة الحقوق وإقامة العدل، يوجد قانون يحاسب على كل جُرم ويقتَصُ من كل قاتل، ليس من الصائب أن يُقتل شخص بسبب شخص آخر فقط لأنه يقربه أو يقيم معه بذات المنطقة، الثأر ليس هكذا والقصاص حياة..

إمتلأ المنزل وخارجه وما زال الناس يتوافدون.. لا أحد ينوي المجيء لمراسم العزاء.. إنهم قادمون للإقتصاص لأبناء عمومتهم، يسمون بالحُلفاء وتُحدد الخانات حسب القُرب العِرقي، جميع القرى المجاورة حلفاء لقرية ودحامد، إن هجم كل هؤلاء على قرية ودالبخيت فلن يظل بها حجر على مكانه.

حاول يونس وكبار القرية تهدئتهم ولكن كانوا كالنار وسط الهشيم؛ يصعب السيطرة عليها، خرج الجميع ناحية قرية ودالبخيت في موكبٍ مخيف يظن كل مَن يراهُ أن نهاية تلك القرية ستكون اليوم.

لا تبعُـد القريتـان كثيـراً عـن المدينـة حيـث توجـد دائـرة للشـرطة الولائيـة ولكـن نـادراً مـا تصـل مثـل هـذه القضـايا إلـيهم، دائمـاً يلجـأ الـبعض مـن أهـل الريـف للثـأر وكـان يـونس ودحامـد مـن أكثـر الرافضـين لهـذه الفكـرة، شـخصٌ نشـأ علـى الإلفـة والتسـامح لـن يرتضـي ضـميره أن يعاقِـب شخصـاً علـى خطـأ أحـد آخـر، ظـل ثلاثـة أيـام محـاولاً تهدئـة الأوضـاع وعـدم الخـروج مـن القريـة لجميـع الأهـالي تحسُـباً لأي شـيء قـد يحـدث إذا مـا إلتقـى أحـدهم بنفـرٍ مـن قريـة ودالبخيـت، هـو يعلـم أن أهلـه لـن يكتمـون هـذا الأمـر طـويلاً ولكـن إتفـق مـع والـده وعمـه علـى أن يسـتعجِلا جلسـة العفـو بـين القـريتين، بعـد أن تمكـن

أخيـــراً مـــن إخمـــاد النـــار التـــي إنطلقـــت شـــرارتها عقـــب الجريمـــة الأولـــى، ظهـــرت أمامـــه مصـــيبة أخـــرى، هـــذه المـــرة المقتـــول أخـــاهُ، لـــم يســـتطع منـــع أهلـــه مـــن غـــزوهم فقـــد خرجـــوا منـــذ وقـــت، يتمنـــى لـــو يـــذهب معهـــم ويحـــرق تلـــك القريـــة جميعهـــا، أن يغـــرس ســـيفه بأجســـاد أهلهـــا جمـــيعهم ولكنـــه يعلـــم أن كـــل هـــذا لـــن يُعيـــد لـــه مـــا فقـــده، لـــن يـــأتي مـــن ثـــأرٍ كهـــذا ســـوى المزيـــد مـــن الخســـائر، ســـيفقد بعـــض أهلـــه وتكفيـــه تلـــك المواجـــع.. كـــان يتـــألم وتـــئنُ دواخلـــه ومـــا زال مظهـــره هادئـــاً، لا أحـــد يلاحـــظ كـــل ذلـــك الضـــجيج بداخلـــه، يحبونـــه.. يحترمونـــه ويقدرونـــه ولكـــن أحـــداً لـــم يـــتمكن مـــن فهمـــه بعـــد، عنـــد الفقـــد ينهـــار مَـــن كـــان

جـبلاً وينكسـر مَـن عـاش دهـره شـامخاً، أن يفقـد المـرء أحـد أحبابـه دون عنـاق أخيـر ودون تلويحـة وداع.. هـذا أقسـى أنـواع الحزن والألم.

كـان يجلـس ويضـمُ كِلتـا قدميـه إلـى صـدره واضـعاً ذِقنـهُ علـى رُكبتَيـهِ حينمـا إقتـرب منـه أحـد أقربائـه وأخبـره أن " بـت مـريم " قـد أخـذت أبنـاء عمهـا للبـوليس وبلغـت عـنهم،لم يسـتغرب ذلـك الخبـر لأن " بـت مـريم " تُعـرفُ بحِكمتهـا وسُـرعة بـديهتها وذكاءهـا، يرضـخ إلـى رأيهـا أهـل قريـة ودالبخيـت فـي كثيـر مـن الأحيـان، يأتونهـا ويستشيرونها في أشياء صعُبَت عليهم.

شـيء مـن الإرتيـاح زار فـؤاد ودحامـد ولكـن هـل سـيمنع ذلـك أهلـه مـن إقتحـام

ودالبخيت؟ لا يعلم، إذاً عليه أن يفعل شيئاً هو الآخر.

امتطى ودحامد جوادهُ وإنطلق به بكل ما يملك من سرعة؛ محاولاً اللحاق بأهله قبل أن يرتكبوا مجزرة في ودالبخيت، قد لا تُرضيهم فكرة أن الأخوَين اللذين قتلا أبناءهما تم تسليمهما للبوليس وسيجري القانون مجراه، وقد لا يؤمنون بالقصاص، قد لا يستطيع اللحاق بهم قبل أن يصلوا وُجهتهم، كل هذه الأفكار كانت تراود عقله طول الطريق الذي أصبح يراهُ طويلاً جداً، عندما اقترب من التلال التي تقع في منتصف المسافة بين القريتين لاح له شبحهم.

******

" بت مريم ":

فتاة لم تعهد أظافرها النعومة حتى حينما كانت طفلة، منذ صغرها كانت تساعد والدها في الزراعة وتذهب وحدها للاحتطاب ثم لجلب المياه بعد انتهاء اليوم الدراسي، لم تكن تميل للأطفال حينما كانت طفلة، تجدها دائماً بين الكبار تشاركهم أحاديثهم وتُدلي بآرائها التي غالباً ما تكون هي المُراد الوصول إليه، منذ طفولتها عَلِم أهل القرية أنها قد أخذت طِباع جدها الشيخ نورالدائم وقد كان حكيماً لامعاً.

كانت تقوم بالتنظيف في فناء منزلها، ترتدي جلباباً فضفاضاً وتربط وسطها بقطعةٍ من المخمل، تتراقص خُصلاتها

مع الهواء، شاردة الذهن، تائهة بعض الشيء، لقد قتل ابن عمها " العوض " أحد الأشخاص من القرية المجاورة، ماذا لو لم يعفُ أهل القتيل؟ سيُقتلُ ابن عمها.. إن كان سيُقتل وحده فلا بأس ولكن قد يذهب الأمر لأبعد من ذلك، ماذا لو أتى أهل قرية ودحامد جميعهم للأخذ بثأرهم؟ سيموت الكثير من الناس.

لم تنتبه لصديقتها " ريم " التي كانت تحلُ ضيفة عليها في ذلك الوقت، ريم ونورا يعملون معاً بإحدى مستشفيات المدينة، ومن خلال أحاديث " نورا بت مريم " عن الريف والأجواء في القرية طلبت منها ريم أن تذهب معها هذا الاسبوع..

ظلت ريم تنادي عليها ولكن صديقتها غارقة في أفكارها، انتبهت أخيراً لوجودها وحينما همت بالحديث إليها أطلّ عليهم " يعقوب " الأخ الأصغر للعوض، ركضت ريم للداخل وانتزعت نورا قطعة القماش من وسطها ووضعتها على رأسها ولكن يعقوب يحمل هماً آخراً لم يمنحه فرصة للاستئذان قبل أن يدخل، قال وتبدو العبرة بعينيهِ:

-العوض ومحمود قتلا يوسف ودحماد!

-ماذا؟

-وجدوه خلف تلك التِلال، وهجما عليه، تمكن من إصابة يعقوب في يدهِ ثم أصابه العوض في عُنقه فأوْدى بِحياتِهِ.

-هل كنت معهم؟

تردد قليلاً قبل أن يجيب:

-نعم.. لا، كنت على مقربة منهم وعندما وصلتُ إليهم كان يوسف قد فارق الحياة.

أسرعت نورا للداخل دَسّت جسدها الممشوق بثوب أمها وخرجت، تطاردها والدتها وريم يتساءلون عن سبب شحوب وجهها ولكن دون جدوى؛ كانت قد عبرت الفناء وتجاوزت الشارع الذي أمام المنزل لتعبر باباً آخراً وهو منزل عمها، لم تجد أبناءه في المنزل فأخذت مفاتيح سيارته ثم توجهت صوب المدينة،كان العوض ويعقوب أخوه يجلسان تحت شجرة " سِدرٍ " لا يأبهان

لشيء، كأنهما لم يتشاركا جريمتين آخرها

صباح هذا اليوم، وكأنهما لا يخشيان حِسابٍ ولا عِقاب، يضحكان ويقهقهان.

قبل ثلاثة أيام كانا على ذات المكان حينما مرّ عليهم " حامد مصطفى " وهو من قرية ودحامد، كان يرعى أغنامه وحده فأرادا أن يسلباه وحينما قاومهما قتلوه.

ثلاث ساعات مرت عليهم وهم في مكانهما هذا، تفاجا بسيارة والدهما تقترب منهم وتفاجا مرة أخرى حينما رأوا بنت عمهم تترجل منها وما زالا متفاجئين حينما وجدا سيارات البوليس تقترب هي الأخرى.

توقفت السيارات أمامهما، أصبح المكانُ ضيقاً لا يسعهما، لم يُصدِقا أن نورا أبلغت عنهما، لم يحاول أحد الفرار، ظلا واقفين مشدوهين حتى قُبِض عليهما وجلسا وسط عربة البوليس منزعجين من بت مريم أكثر من ضيقهم لإعتقالهم بجريمتي قتل، كيف تفعل هذا بهم وهي ابنة عمهم وابنة خالتهم؟ ولأجل مَن؟ قرية لا تعرف فيها أحداً ولم تذهب إليها من قبل؟

بدأ جرح يعقوب ينزف وكان قد لفهُ بشاله فقط، ظهرت الدماء فوق ملابسه مما أثار انتباه أحد الأفراد فسأله عن الجرح،

أجاب محمود:سقطتُ من على شجرةٍ.

لم يقل العسكري شيئاً، اكتفى بالإبتسام فقط.

ظلت السيارات تضرب في الأرض صوب المدينة على الطريق الترابي، مثيرة خلفها الكثير من الغُبار والضباب.

في غرفةٍ من الطين الأخضر تُستخدمُ صالوناً للزُوار، مفروشة بأثاثِ ريفي عادي، طاولة صغيرة وسريرانٍ من الخشب وبضع ملصقاتٍ على الحائط بعضُها مقصوص من الصُحف، إحداهن صورة للاعب الوطني هيثم مصطفى. ستائر حريرية خضراء تُزيّنُ النصف الآخر من الحائط، بيوت العنكبوت تُشكِلُ مجمعاً سكنياً على السقف وأعلى الجُدران، كانت نورا تسترعي انتباه

صديقتها وأمها وهي تقْصُص عليهم ما فعلته بالمدينة:

-عندما وصلتُ إليهم سألتُ عن مدير القسم فوراً ووجهوني إلى مكتبهِ، أخبرتُهُ بالأمر بكل تفاصيله وأخبرته " هذا الأمر سينقذ القريتين من مذبحة كبيرة، لا شيء يمكنه إيقاف هذه الحرب سوى اعتقال هذين الولدين "

قاطعتها والدتها:

-ولكنك قد تخسرين أهلك بسبب هذا التصرُف!

-ماذا كنتِ تريدين مني أن أفعل يا أمي،هل سأجلس هنا وأنتظر يونس ودحامد يأتي مع قومه للقضاء علينا أوعلى أهلي؟

-يونس ودحامد لن يفعل هكذا، هو من أفضل رجال قريته وكان جده ودحامد الكبير صديق جدك نورالدائم.

أشاحت نورا بيدها كأنها تحاول إبعاد تِلك الكلمات:

-لا تُذكريني يا أمي فجدُهُ هذا هو أصل كل هذه المصائب.

-لا تقولي هذا، لقد جاء الرجل الى هنا طالباً الزواج وجدُكِ زوَّجَهُ، أهلك هم مَن رفضوا بعد قبولهم وصنعوا هذه العداوة.

-وما ذنب تلك المرأة لتكون نهايتها هكذا؟

-لا ذنب لها سوى أنهم أهلها

تنحنحت ريم وعدلت جلستها ثم قالت وقد أصبحت لا تفقه شيئاً مما يقال:

-انا هنا، هل نسيتموني؟

أجابتها الحاجة مريم:

-لا ولكنها نورا، ما أن تخوض في شيءٍ لا تتركه، " ربنا يجيب العواقب سليمة "

تنهدت نورا ثم نهضت تخطو مبتعدةً عنهم ولحِقتها ريم.

في المدينة كان يعقوب وأخوه ُ يجلس كل منهما بزاوية معاكسة للآخر، شاردة أذهانهما يستغربان تصرف بنت خالتهما.. يتبادلان النظر ويلوم كل منهما الآخر بعينيهِ.

كان المتواجدون بالزنزانة يتبادلون الحكايات عن كيفية وصولهم إلى هنا، يروي أحد الأشخاص قصته واسمه محمد علي، شاب في العقد الثاني من

عمره، لا توحي ملامحه بشيء، هاديء أغلب الأوقات، يتحدث مع نفسه أحياناً، عيناهُ صغيرتانٍ مُحمرتانٍ منظرهما يوحي بأنه قد إستنزف كل دموعه.

يقول:

" كنتُ على خِلافٍ مع خالي وقبل ثلاثة أيام وجدتُهُ حين دخولي للمنزل، أخرجتُ سكيني فغرستُها فيه وتركتُهُ لدمائه يسبح فيها حيث شاء، كنا متخاصمين طول عامين، أجده في طريقي فأتركه له أو هو فعل، عامانٍ لم تلتقِ أيدينا، كنتُ أرى أنني على صواب وهو يرى أنه محق. لا أحد أراد أن يبادر أو يتنازل، لم أشعر بندمٍ أبداً إلا حينما رأيتُ أمي تجلس بجانبه وتبكي وتنتحِب، الدماء

في كل مكان.. تلطخت يداي، حينها شعرتُ باستحالة تنظيفها، وإن تمكنتُ من تنقية يداي، كيف سيشفى جرح أمي، القاتل ابنها والمقتول أخاها، أيُّ مصيبة تلك؟

قررتُ حينها أنه لا يجب عليه أن يموت، سأفعل كل شيء لأجل بقائه، على الأقل لا يموت الآن وبسببي،

أخذتُهُ وركضتُ به إلى المستشفى ثم أتيتُ لتسليم نفسي.

الخصومة لا تأتي إلا بالخسائر، بعض الخصومات انتصارها هزيمة والبعض الآخر هزيمتها تُشعرك بلذة الانتصار.

الانتصار يكمن في العفو والتجاوز، التصعيد انفجار مؤجل، والثأر والانتقام

مـــا هـــي إلا نـــزوات نفـــسٍ تبحـــثُ عـــن رِضاها بطريقةٍ غير مشروعة.

هـــذا يـــومي الثالـــث هنـــا ولـــم تـــأت والـــدتي لزيـــارتي بعـــد، كمـــا أننـــي لا ألومهـــا وأعلـــمُ أنهـــا قـــد لا تـــأتي أبـــداً فأنـــا لا أســـتحِقُ كـــل ذلـــك العنـــاء منهـــا، أريـــدُ فقـــط أن تـــتمكن مـــن مسامحتي ".

تلَّفـــتَ حولـــه فوجـــد الجميـــع غـــارقون فـــي دمـــوعهم، حتـــى العـــوض ويعقـــوب كانـــا يبكيـــان، وقبـــل أن يتحـــدث أحـــدهم أتـــى أحـــد الشُرطيين وقال:

-محمـــد علـــي، لـــديك زائـــر.. والـــدتُك تنتظِرُك.

******

" يونس ودحامد ":

على قِمة التلال التي تتواجد خلف قرية ودالبخيت كان يونس قد اعترض طريق أهله ووقف أمامهم وقال:

-أنا أقرب للقتيلين منكم جميعاً، أحدهم أخي ابن عمي والآخر شقيقي وإني لأكثركم حُزناً وغيظاً ولا أريدُ ثأراً،مَن أراد أن يخطو خطوة واحدة نحو الثأر فليبدأ بي أولاً وهذا سيفي سأُلقيهُ فلن أقاتلكم أبداً.

******

" بت مريم ":

في جلسة أخرى جمعت نورا بوالدتها في فناء منزلهما، سألت الأخيرة:

-الآن ماذا سيحدث؟

-لا أعلم يا أمي، عندما أعدتُ السيارة لعمي سألني عما فعلتُهُ بها فأخبرتُهُ أنني ذهبتُ للمدينة وأبلغتُ عما فعله أبناؤهُ اليوم وهما محبوسانِ الآن.

-وماذا كان رد فعله؟

-لم يقل شيئاً.. ولم أنتظره لأسمع،خرجتُ مباشرةً.

-والآن ماذا ستفعلين؟

-لا شيء، سأستلقي فقط؛ لقد تعِبتُ من كل هذا ..!

أرخَت جسدها على سريرٍ ذا جِلادٍ بلاستيكي، وأغمضت عينيها في محاولة يائسة للإسترخاء ولكنها سرعان ما انتفضت من مقامها حينما سمعت صوتاً يصيح في الطريق:

" يـــونس ودحامـــد جـــاء مـــع أهلـــه ليهاجموننا "

نظـــرت إلـــى والـــدتها وهـــي تطـــرحُ عليهـــا سؤالاً بعينيها:

" ألـــم تقـــولي أن يـــونس لا يفعـــل شـــيئاً كهـــذا "؟ هـــا قـــد أتـــى وأتـــت الحـــرب، نهضـــت مـــن مكانها وإتجهت للداخل، سألتها والدتها بصوتٍ مكسور:

-ماذا ستفعلين؟

أجابتها دون أن تلتفِت أو تتوقف:

-لا مجال لتفادي الحرب بعد الآن.

******

" قسم الشرطة "

عـــاد محمـــد علـــي إلـــى الزنزانـــة منفرِجـــة أســـاريره لا تســـعه الأرض مـــن الفرحـــة،

محبوساً يشعر بهكذا سعادة، لابد أن يكون الأمر عظيما. سأله رفاق الحراسة عما حصل مع والدته فقال لهم:

-أتت لتُطَمئِنُني علي خالي ولتطمئِن عليَّ، قالت أنه سيخرج غداً من المستشفى وأنه يرغب بإخراجي من هنا.

تلاشى كل شيء بينهما بعد تلك اللحظة،تناسَوا عداوة عامين كأن شيئاً لم يكن، سأل العوض أخاه محمود:

-كانوا يتحدثون في القرية عن خصامٍ قائم بين ود حامد وإبن أخته صحيح؟

-بلى، ولكنهم يقولون أن ابن أخته هو مَن أخطأ أولاً، يونس لا يعتدي على أحد.

-تتحدث وكأنه أخوك ! ألا يمكن لابن أخته ذاك أن يقتله ويريحنا منه؟

-لا يا العوض، لكن نَمنحهُ حقه، مهما كانت خلافاتنا، بالمناسبة، ما سبب خلافك معه؟ لا أذكر أنه تعرض لك بسوء.

-لا يوجد أحد يستطيع الاختلاف مع ودحامد، كانت حماقة مني أن اعترضتُ طريقه ذات يوم، ولكن تصعب العودة بعد الآن .. الوقت سيقرر مصير هذه الحرب، وحتى ذلك الحين، لن أفوّت فرصة للقضاء عليه.

-ألا زلت تكابر؟ بعد كل هذه الفوضى التي أقحمتنا فيها؟ أنت مَن بدأ أولاً، لو لم تعترض طريقه لِما كنا هنا الآن.

-لا تنسى أنك شاركت معي في هذه الفوضى

-كنت أحميك فقط، ويوسف كان يدافع عن نفسه أيضاً حينما قام بطعني.

-الآن أصبحت تلومني؟ أنت وبنت عمك سواء !

احتدم النقاش بينهما حتى اشتبكا بالأيدي، تمكن أفراد الشرطة من فض النزاع بعد دقائقٍ ليست بقليلة، بعد أن فِشل جميع المحبوسين من الفصل بينهما.

******

" يونس ودحامد ":

تقدم أحد الأهالي من بين الصفوف وقد كان ابن أخت يونس وكانوا على خلافٍ

يعلمه كل أهل القرية وربما بعض القرى المجاورة، كان حديثاً أستمر لأيام، يونس يقاطع ابن أخته.. كان كالأمر غير المنطقي فلم يعهدوا ذلك بيونس، لذلك انتشر الأمر سريعاً كشيء خارق للعادة.

أتى خلف " عمر " أحد الأشخاص يحاول اللحاق به، ظناً منه أنه يريد الهجوم على يونس، أشار له يونس بيده أن توقف فتوقف الرجل وظل " عمر " يقترب من موضع خاله حتى دنا منه وقال:

-حسناً، نحن لن نهجم ولكن هل ستضمن أنت أن هؤلاء سيكونون آخر مَن نفقد على يدهم؟

-هذا الأمر يعتمد على هدوئكم وعدم تعرضكم لهم.

-ولكن في المرة السابقة لم يتعرض إليهم أحد منا وأنت تعلم هذا.

-أعلم، ولكن أعتقد أنهم قد علِموا حدودهم الآن، ثم أن مَن قتلوا خوالك سيواجهون القانون.

-حسناً، نحنُ سنعود ولكنك ستتحمل نتيجة كل كارثة تأتينا منهم مسبقاً، دع ذلك بعقلك.

-أنا أعرف ما أفعله.

تولى " عمر " عائداً للجمع، لم تكن المسافة بعيدة بينهما، وحينما اقترب منهم إلتفَتَ ناحية خالِهِ يونس ثم واصل سيرهُ و بسرعة التفتَ إليه مرة أخرى

وبطريقـــة مباغتـــة أطلـــق ســـهمه ناحيـــة خاله.

******

" بت مريم "

طلبَـــت نـــورا مـــن صـــديقتها ألا تخـــرج أبـــداً ومهمـــا حـــدث، ذهبـــت للخـــارج كانـــت القريـــة عـــن بكـــرة أبيهـــا تمـــوج، غليـــان يجتـــاح الطرقـــات، أُنـــاس يركضـــون ويصـــرخون، كـــل مـــنهم يحمـــل ســـلاحاً، ســـيفاً أو قـــوس ورُمـــح، كِنانـــة ســـهامٍ وخنـــاجر، خيـــول وحميـــر وجمـــال، يتصـــاعد الغبـــار والصـــراخ والحمـــاس نحـــو الأفـــق، لا أحـــد مـــنهم كـــان يرغـــب بالوصـــول لهـــذه المرحلـــة ولكنهـــا جـــاءت، لـــن يختبـــؤوا حتـــى تقـــول القُربـــإن ودالبخيـــت خشـــيت نـــزال ودحامـــد وتـــوارت

خلف جُبنها، أقوال الآخرين هي ما تقود هذا الوجود، هم مَن سيحددون خطوتنا المقبلة، أي قانون هذا..؟

خرج الجميع ناحية ودحامد وقومه، ولاح من خلفهم شبح امرأة على جواد أبيض، تُغطي وجهها بخِمارٍ يُظهرُ عينيها فقط، كالأميرات من العصر القديم، تحملُ حربةً في يدها اليُسرى تشعُ بريقاً كملامحها، وفي اليُمنى راية بيضاء تحملُ السلامُ كعينيها، حاجباها مقوسانٍ كالبدرِ في يومه الثالث،أصبحت المسافة بين القومين قصيرة جداً. قبل أن تتمكن من اللحاق بهم سيكونون قد بدأوا تلك الحرب.

******

" يوسف، في وقت سابق "

-السلام عليكم ورحمة الله، بسأل عن دكتورة نور، مناوبة هنا.

-دكتورة نور بتشتغل بالصباح.

-طيب، شكراً جميلاً.

خرجتُ من المستشفى أبحثُ عن شيء يلهيني قبل أن أعود للمنزل، كنتُ أُقابل طبيباً آخر طول ثلاثة شهور سابقة ولكنه سافر لخارج البلاد فقام بتحويلي إليها، قال أنها بارعة جداً في أمراض الكُلى، توجهتُ إلى سوق المدينة وبدأتُ أجوبَ الطرقات، لدي الكثير لشرائه، قطع قماش وعدد من صناديق البسكويت وثوباً وحذاءً لأختي و جلباباً.

كانت الشمس قد اقتربت من المغيب عندما انتهت جولتي بالسوق بعدما أخذتُ كل ما أريد شراءه، توجهتُ لمطعمٍ شعبي بطرف السوق وتناولتُ غدائي ثم أخذتُ معي بعض الطعام لأختي سُهى وعدتُ للمنزل.

في صباح اليوم التالي على الإستقبال وجدتُ فتاةً غير تلك التي كانت هنا صباحاً فسألتُها بعد السلام عن دكتورة نور فقالت بصوتٍ يمتلىء رقة وعذوبة:

-أصعد عبر هذا الدرج، الطابق الأول،الغرفة الثانية ناحية الجنوب الجغرافي.

شكرتُها وتوجهتُ خلف إشارتها وعقلي يحاول تصور ذلك الوصف والطبيبة

الجالسة وسط الغرفة الثانية التي ذُكِرت لي قبل قليل.

طرقتُ الباب بتأنٍ وتمهُل فأتاني صوتٌ خلف الباب الموصد مليء بالأنوثة واللين طالباً مني الدخول، أدرتُ المقبض ودخلتُ، ما رأيتُهُ هناك فاق ما تصوره عقلي، غرفة بيضاء جميلة الطراز والديكور، طاولة خشبية عليها جهاز قياس ضغط وساعات طبية ومقلمة و دفتر، هاتف صغير بجانبها، أمامها مقعدانٍ تشغِلُ أحدهما فتاة في مقتبل العمر إستأذنت منصرفة بعد دخولي، خلف الطاولة تجلس فتاة برِداء أبيض كملامح وجهها، لوهلة حسبتني في منامٍ أو مقرٍ للملائكة أو شيء مثل

هـذا، كـل مـا هنـا ناصـع البيـاض، قـد أكـون فـي حلـم أو مـا زلـتُ فـي تصـورات عقلـي وتوقعاتـه، الأبـيض لـون الأطبـاء ولكـن أِلهذهِ الدرجة؟

ابتسـمت وهـي تشـير بيـدها إلـى أحـد المقعـدين أمامهـا فـي دعـوة للجلـوس، أسـنانها موضـوعة بعنايـة كأنهـا بُنيانـاً مرصـوص، ناصـعة البيـاض كمكعبـاتِ الـثلج، عيناهـا جميلتـان حـد الثمالـة. أفقـتُ مـن هفـوتي تلـك وألقيـتُ التحيـة عليهـا، سـلاماً منحتُـهُ لهـا راجيـاً أن تمنحنـي السـلام، تحسسـتُ أعـراض المـرض فلـم أجـدها، أشـعرُ أن كِـلايَ عـادت معافـاة لا تشـكو سـقماً. جلسـتُ وأنـا أحـاول جاهـداً لملمـة تلـك البعثـرة التـي فعلتْهـا بـي، ظلـت

تعبــتُ بــدفترها دون هــدف، لاحظــتُ طــول نظرتـــي فأخفضـــتُ عينـــي وقـــد طُبِعـــت صورتها بهما. قالت بعد صمتٍ قصير:

-إتصـــل بـــي دكتـــور خالـــد وأخبرنـــي عنـــك، ســـأتابع معـــك ريثمـــا يعـــود هـــو، أرجـــو أن لا تشـــعر بفـــرقٍ بينـــي وبينـــه وأن أكـــون فـــي محل ثقته بي.

دعـــوتُ بـــداخلي ألا يعـــود ذلـــك الطبيـــب أبداً،العديـــد مـــن الأســـئلة طرحتهـــا بخصـــوص المـــرض، وددتُ لـــو أُجيبهـــا بـــأنني أشـــعر بعافيـــة عظيمـــة تجتـــاح كـــل زوايـــا جســـدي، و أخبرهـــا أننـــي شـــخص مـــن عمـــق الريـــف لا أعلـــم عـــن تقاليـــد الحُـــبِ شـــيئاً، ولكـــن ذلـــك الخفقـــان بقلبـــي أتـــى حينمـــا رأيتُـــك، شـــعور بالطمأنينـــة يجتـــاح

روحي ولا مبرر لهذا سوى إنه دلالة على نُطفة حُبٍ تنمو بي.

حددت لي جلسة أخرى بعد أسبوعين بعد أن وصفت لي بعض الأدوية التي كنت أتناولها طيلة الثلاث شهور الماضية،

قالت: إن لم يكن هناك تحسُن فيؤسفني إخبارك أننا سنضطر للبدء في الغسيل.

خرجتُ منها تختلط الأحاسيس بداخلي،إحساس فارِه بالنشوة والحُب يخالجه إحساس الحزن والأسى، أشعر أن الحياة منحتني شيئاً ما وتستعد أن تأخذ المقابل، الحياة لا تعطي شيئاً مجاناً، علينا فقط أن نأمل ألا تكون هناك فوائد أيضاً مع المقابل.

" يوم الثأر "

أطلـــق عمـــر ســـهمهُ ناحيـــة خالـــه يـــونس ولكنـــه أخطـــأهُ وتجـــاوزهُ. ربمـــا لـــم يُخطئـــهُ وكـــان مقصـــوداً أن يســـتقر بصـــدر أحـــد القـــادمين مـــن الخلـــف، ثـــوانٍ معـــدودة ســـقط بعـــدها يـــونس متـــأثراً بإصـــابته بســـهمٍ فـــي ظهـــره. أول مـــن تلّقـــاهُ كـــان ابـــن اختـــه عمـــر لأنـــه كـــان قريبـــاً منـــه، قـــال بصـــوتٍ سَـــمِعه الجميع:

-مـــاف زول يهـــاجم. مـــا تنســـوا يـــونس قـــال شنو، أهم شيء حالياً إننا نسعِفُه.

رايـــة بيضـــاء تظهـــر خلـــف الجمـــوع الأخـــرى، لمحهـــا يـــونس ودحامـــد قبـــل أن تـــذهب عينـــاهُ فـــي رحلـــة نـــومٍ سَـــقيم، إبتســـامة منتَصـــرِة رســـمت نفســـها علـــى

ثغره رغم الألم والإعياء.. لقد ظلت بت مريم تحاول دَرء هذه الكارثة حتى آخر ثانية.

******

" الدكتورة نور "

لم تكُن تدري بأن سعادتها خُلِقَت بعمرٍ قصيرٍ كهذا، ظنت أنها ودعت حُزنها وآلامها وتلك الليالي التي ظلت فيها تُبلِلُ الوِساد وتغفو دون إدراك منها، أحياناً كانت تستقبل الشمس حين شروقها بعينين متورمتين من كثرة البكاء، بعض الجروح لا تلتئِم مهما عبَرَ بها الزمن، الوقتُ ليس خير عِلاج دائماً؛ هناك آلامٌ تغرِسُ نفسها وتتأصل وسط الفؤاد لا يمحوها الدهر .. ظَنَّت أنها نَسيَت كل

ذلك الأنين والصِراخ وفتحت يديها لمواعيد أُخرى جديدة تظُنُ وهماً أنها بداية لنهاية؛ نهاية ذلك الشقاء والعذاب لم تُدرِك حينها أن لعنة العِشق التي ظلت تلاحقها لم تكتفي في جعلها تتذوق مُرِّهِ، لم يكن من المكتوب لهم التنعُمِ بالنعيم ؛فبعد النِزال الأول الذي خرجت منه خاسرة مكسورة أتت هذه المرة تحمل آلامها لتُودِعها في حضنِ رجلٍ آخر،ترجو منه أن يداوي ما صنعه الزمن بقلبها الصغير .

في مقهى وسط المدينة كانا يجلسان ويتبادلان كلمات الحُبِ كطفلين تناسيا الوجود وظلا يتغنيان الوُد والمحبة، يحتضِنُ يديها بكَفَيهِ كرضيعٍ يحاول أن

يتشبثُ بثدي والدته بمعدةٍ خاوية، وهي كصغيرِ عصفورٍ يتلقى الطعام من تقبيل أمه لهُ، لا يرغب بنهاية تلك القُبلةِ، لطالما افتقدها زمنٍ عاشه في جفاف ..

قال لها حينها :

-لا أعلمُ عن الظروف ولا أؤمن بها، أعلمُ أن المرء إذا أحب شخصاً فسيضعه نُصب عينيهِ حتى ينالهُ .. أنتِ عيناي كُلِها، رُؤيتي ورُؤاي، سِقمي ودواي، روحي ومُناي . لا تخشي الفُراق فهو ليس موجوداً في قاموسي، ولا تهابي البُعاد فلا شيء أو شخص في الوجود سيحول دوننا ..

نَمَت بداخلها بذور الأمان والإطمئنان بعد هذهِ الكلمات، فرهدت بها ورود الوُدِ

وأطلقـــت العنـــان لأحلامهـــا وأُمنياتهـــا، بـــل قـــد اختـــارت حتـــى اســـم أول مولـــودٍ لهـــا وقـــد كانـــت تتمنـــى فتـــاةً تُطلِـــقُ عليهـــا اســـم " إيلين " .

تناسَـت أن الوقـت يسـرقُ كـل مـا هـو جميـل و وردي، لـــن تـــأتي الريـــاح كمـــا تشـــتهي سُـــفُنِها ولا الـــدنيا تمـــنحُ كـــل شـــخصٍ مـــا رَغِبَ بهِ قلبُهُ .

فـــي موعـــدٍ آخـــر حَكَـــت لـــهُ مـــا فـــي قلبهـــا .. أخبرتـــهُ عـــن اســـم طِفلتهمـــا الأولـــى وتركـــت لـــهُ أمـــر المولـــود الثـــاني، أسْـــهَبَت فـــي ســـردِ طموحاتهـــا وآمالهـــا، أخبرتـــهُ عـــن كـــل شـــيء يعتـــري فؤادهـــا، حتـــى مخاوفهـــا فـــي فراقهمـــا . ظلـــت تتشـــبثُ بيـــدهِ كأنهـــا آخـــر فرصـــة لهـــا، كيـــف لا وقـــد أضـــحَت تنـــامُ دون

هطول دمعةٍ وحيدة من مُقلتيها وتصحو كما تصحو العصافير؛ فرِحة مُزقزِقة تُنتِجُ الألحان فوق أغصانِ الحياة المُخْضَرة ولم تلحظ اقتراب فصل الصيف حيث تجف الأوراق وتتساقط، فصل الإنفصال حيث تجفُ الآمال وتتهاوى .

كان صادِقاً في وعده ولكنه خشيَ عليها من الانكسار في حال رحيلهِ، لم يكن مريضاً بالكانسر ولكن أتعبهُ غسيل كِليتيهِ حتى أصبحت أُمنيته الوحيدة الخلاص، لم يكُن ضعيفاً يوماً ما ولكِن ضُعفها وبكاءها أضعفهُ .. هي تخشى عليهِ من الإستسلام للمرض وهو يخشى عليها من الحزنِ والإنهيار .. كانا

حبيبانٍ صادقانٍ في وقتٍ كاذب، ليت الحياة تتراجعُ خطوة للوراء وتمنحهما ما يسعيان خلفه .. ما يُضير الحياة إن أبقت على عاشقين معاً حتى يشيخا ؟ ماذا سيخسر الكون إن لم يفترق قلبٌ عن قلبٍ يهواهُ بصدقٍ .؟

أتت إليهِ ذات يوم وهي طبيبتُهُ وحبيبة روحهِ، أخبرتهُ والإبتسامة تعلو ثغرها وتشعُ بريقاً :

-وجدنا متبرِعٍ، فقط ننتظرُ نتيجة بعض التحاليل قبل آداء العملية .

لم تلحظ إنفراج أساريره بإبتسامةٍ تنتظِرُها، بل حتى الشحوب على وجهه ظل كما هو ..

أمسكَ بيديها و دَنا منها وهمس :

-أريدُ أن أتحدث إليكِ بأمرٍ، كِلانا لا نعلمُ ماذا سيحدُث في النهاية، قد تختلف معطيات الحياة وسيرها عن تلك الآمال التي بنيناها ..

دمعة حائرة انحدرت على خدِها تُنذِرُ بالمزيد من الأمطار خلفها، ضغطت على يديهِ دون شعور وأطبقَت على شفتيها وعينيها وانهمرَت في البكاء؛ كأنها تعلم ما الذي يريدُ قوله، أغلقت كل الحواس لديها حتى لا تُدرِك ما يعنيهِ كلامه ولا تسمع ما بقِيَ منهُ، ظلت تتعلقُ بهِ بيديها دون أن تتمكن من النُطقِ .. قد تحملُ الدموع كل ما يرغبُ المرء بقولهِ وقد يحمل الصمتُ كلماتنا بين طيات السُكاتِ،

بـــين دمعـــةٍ وأخـــرى، آهـــةٍ و زفـــرة، الكثيـــر من الحروف الموءودة .

نهضَـــت ولا يقـــوى جســـدها علـــى حملهـــا، توجهـــت إلـــى المخـــرج تاركـــةٌ وراءهـــا أحلامـــاً عديـــدة مســـكوبة علـــى الأرض وبقايـــا حـــديثٍ لـــم ينتهـــي وبِضـــع دمعـــاتٍ وقُبلات يتوسطهما اسم فتاةٍ كان إيلين .

******

" نورا بت مريم "

وقفـــت بـــين الجمـــوع تُحـــدِثُهُم والحُـــزن واضـــحٌ علـــى ملامحهـــا، تقِـــفُ هنـــاك حيـــث ســـقط يـــونس ودحامـــد ورفعـــهُ أهلـــه وعـــادوا به ،قالت والحزمُ يبدو جلياً في كلماتها:

-مـــا حـــدث اليـــوم لـــيس كـــل شـــيء، لـــو لـــم أذهـــب لإســـتدعاء الشـــرطة وتســـليمهم

إخوتي لِما كُنا نقفُ هنا بكامل قُوانا وصحتنا . ولما عادوا هم بنفس العدد الذي أتوا بِهِ، لا أخشى لومة لائمٍ منكم أو سواكم؛ لقد نال أبناء عمي ما يستحقونه،ولا داعي لأن تنجرِف كل القرية خلفهما ونحن نعلم أنهما مُخطِئان؛ فخسارة شخصين أفضل وأهون من خسارة عشرة أو مئة .

ساد الصمتُ بين الأهالي وظلت نورا تُقلِّبُ نظرها بينهم ثم استطردت :

-سيجري القانون مجراه، إن أرادوا العفو فسيُعيدون أبناءكم إليكم وإن أرادوا ديةً فستُدفع وإن أرادوا القصاص فسيحدُث وقد قال الله في كتابه : { ولكم في القصاصِ حياة... } .. اليوم أصِبتُم

بهم خير أهلهم ولا أعتقدُ أنهم سيتجاوزون هذا الأمر، أصابوا مِنا أحداً ولكن إصابته خفيفة وها هو يقف بيننا، لا نَهابهم ولكننا نخشى علينا من الإنجراف خلف أمرٍ تكون نهايته مأساوية، لكم القرار وحق الإختيار، إن أردتُم اذهبوا خلفهم وافعلوا ما تجدونه صائباً وإلا دعونا نعود إلى بيوتنا وأحضان أطفالنا وسيُحدِثُ الله أمراً كان مفعولا .

تعالت الأصوات بين رافضٍ ومؤيد ولأن الغالبية كانت مؤيدة عاد الجميع إلى القرية ،بعض المُشكلاتُ تحتاجُ عقلاً وبعض المواقف تحتاجُ حكمة وبعض القُرى تحتاجُ نورا .

" يوسف "

كان إسبوعاً سيئاً مرَّ عليهِ في منزله، لم يعتاد البقاء هنا كثيراً ولكن ظروف المرض أجبرتهُ على البقاء طريح الفراش. لم يستطِع إخبار أخته عن تطورات مرضهِ لصغر سنها، وحينما سألته سابقاً قال لها أنها مجرد أعراض واختفت بعد مقابلة واحدة وليس في الأمر خطورة، لم تعتقد أنه يطمئنُها كاذباً، أحياناً يختار المرء الكذب مجبراً لأجل ألا يفطر قلب أحدهم، الصدق ليس أفضل خيارٍ في بعض الأحيان؛ فقد يتسبب بانكسار قلب شخصٍ يهتم بك.

أكمل إسبوعه ذلك وبعد أن غادر الفراش حَمَلتهُ قدماهُ إلى تلك الطبيبة

مرة أخرى بالرغم من أن موعد مقابلته لم يُحين بعد، دخل مكتبها فرآها وأحَبَها مرةً أُخرى، يتجدد الحب بعد كل لقاء كتجدد الصباحات مع كل شروق، نظرت إليهِ مستغربة، انتظرتهُ ليتحدث فربما يشكو من شيء أو بعض المستجدات طرأت على مرضهِ، لم تعتقد أبداً أنه سيعود إليها مرة أخرى بعد آخر لقاء جمعهم. الكلمات لم تُسعِفهُ فلم يأت إلى هنا بسبب ذلك المرض وإنما إشتياقه وحنينه لها هو ما أحضره، يبقى أمر الحب وتصنيفه بيد مَن نُحب، إن شاء أبقاهُ حُباً وإن شاء أحالهُ سقماً يفتك بالفؤاد. وقد فطر فؤادها في آخر لقاء. حينما طال صمته بادرت هي بسؤاله عن

حالــه، ظــل ينظــر إليهــا بعينــين منكســرتين، أحنَــت طرفهــا وظلَّــت تعبــث بالأشــياء أمامهــا وكــأن نظراتــه تلــك تعبــث بــدواخلها وتثيــر الفوضــى بقلبهــا، قــال بصــوتٍ أقــرب للهمس:

-إن كــان لــي عــلاجٌ علــى هــذه الأرض فهــو أنتِ.

ربمــا لــم يُفكِــر فيمــا قالــه وربمــا أراد اســتغلال مــا تبقــى لــه مــن وقــت واســثماره فــي بحثــه عــن علاجــه بطريقــة أخــرى غيــر العقــاقير الطبيــة والوصــفات البلديــة الريفيــة، تفاجــأت مــن قولــه وإرتعــدت دواخلهــا، هــل هــذا مــا كانــت تنتظــره منــه؟ تظــل الأشــياء التــي نــدفعها بعيــداً ونرفضــها تقتــرب كلمــا ركضــنا عنهــا، ربمــا لــم يكــن

سيحدث هذا إن كانت تريد له الحدوث فمخالفة الرغبات هو سر الحياة وسير خطتها. كانت ترفض الحب في وقت سابق، وحينما قبِلتهُ قام هو برفضها وحينما عزمت على المضي قُدماً عاد الآن ليطرق بابها مرة أخرى.

أرخَت جسدها على كرسيها وحاولت أن تبدو هادئة رغم اضطرابها الواضح كوضوح الحب في عينيهِ الحزينتين. لم تَدْرِ ما تقوله، ارتسمت إبتسامة على شفتيها رغماً عنها فتخلت عنها سريعاً، ربما كانت ابتسامتها جواب قلبها حينما رأى صمتها، عادةً تستخدم القلوب الملامح للإبداء برأيها حينما تستعصي

علينا الكلمات وتختار ألسِنتُنا الصمت ثوباً ترتديهِ.

سألها بترقب ورجاء:

-ربما تظنين أنني لا أعلم ما أريده ولكن الحب لا يحتاج تفاصيل، القلب هو مَن يعشق، العين مجرد وسيلة لنقل المشاهد فقط، لا تُنتِجُ حباً وليس بها رِحماً للمشاعر. العقلُ أداة تصريف وتفكير ومفاضلات بين فكرة وأخرى، القلب فقط.. وقلبي لا يرغب بسواك.

ظلت تعبث بأقلامها، تجوبُ بنظرها أرجاء الغرفة، أنقذتها فتاة على المدخل تقول:

-دكتورة نور، يريدونك بقَاعة الإجتماعات.

بالرغم من أنها أرادت الخروج من ذلك الموقف والتهرب من الإدلاء بأية أقوال قد تندم عليها لاحقاً ولكن بعض الضيق بَدَا عليها، كأنها لا تريد الذهاب ولا تنوي الإبتعاد عنه، لم تنس آلامها السابقة بعد ولكن ترى في عينيهِ خلاص قلبها، وجدَت الحب في أكثر أوقاتها احتياجاً له.

سألت نفسها وهي تهم بالخروج " أليس في الأمر خطب ما؟ " فلم يسبق أن منحتها الحياة شيئاً في وقته.

أخبرته أنها ستعاود الإتصال به فيما بعد وخرجت.

******

" ود حامد "

اليـوم الثـاني لـه بعـد إصـابته تلـك، أخبـرهم الحكـيم أن السـهم كـان مسـموماً وقـد يـؤدي للشـلل ووصـف لهـم بعـض الأعشـاب لمسـحِها مكـان الإصـابة وبعـض العقـاقير الطبيـة ولكـن أهلـه ذهبـوا بـه إلـى المدينـة فقـاموا بتنظيـف جرحـه وطلبـوا مـنهم قضـاء يـومهم هنـاك وعـادوا اليـوم بعـد أن طمئنهم الأطباء.

أسـدل الليـل سـتائره وخـيَّم الظـلام علـى الوجـود، ولكـن القمـر يواصـل تمـرده المعتـاد حينمـا يكـون الوقـت منتصـف شـهرٍ فأطّـل عبـر الأفـق يـتلألأ نـوره كاشـفاً عـورة الظـلام، المـوت يُخـيم علـى القـريتين والمسـافة التـي تفصـلهما وتلـك التـلال

بينهما، شخص واحد من قرية ودالبخيت خرج للبحث عن إحدى نعاجه التي تخلت عن القطيع ولم تعُد إلى المنزل، طاف بشوارع القرية وأزِّقتها فلم يجدها وإتجه للبحث عنها خارج القرية وحينما اقترب من التلال الرملية لاحظ وجود شخص ما في قمتها فذهب ناحيته ولكنه تلاشى بعد قليل واختفى، أتى حيث رآه فلم يجد شيئاً سوى أثار أقدام، ورأى نعجته خلف التلال في المَرعى فذهب إليها وأحضرها وحينما كاد أن يهبط من القمة ليتوجه إلى قريته ظهر خيال شخص أمامه، ظله الطويل يمتد عبر الرمال خلف ضوء القمر كإمتداد الصحاري والبحار على الأرض، سيفه

في يمينه يلمع كانعكاس النجوم على المياه.. توقف مكانه وأخرج سكينةً من صلبه ومضى نحوه.

******

" نور ويوسف "

بين حرفي نفي ونهي بدأ كل شيء، غريب أن تكون ال" لا " بداية لشيء؛ ما أعلمه وما ظللتُ أدرُسهُ طول أربعة أو خمس سنوات أن ال" لا " ليست سوى حرف نهي ونفي، اليوم وجدتُ ما يخالف ذلك المنهج فعندما نطَقَ لِسانها بتلك الحروف وخرجت عبر نفاج شفتيها لمسمعي، حينها تغيرت قوانين اللغة فأصبحت حروف النهي تعني الموافقة وليس الرفض، وحروف النفي توحي

بالقبول القاطع. أصبحت ال" لا " حرف توكيد وحُب.

سألتها في أحد لقاءاتنا :

-لماذا لم تُحبيني؟

وضعَت للغة قانوناً جديداً معجمه شفتاها الرطِبتان المكتنزتان وقاموسه قلبها حينما أجابت:

-لا، أحبك.

ظلت ال" لا " حرف نفي ولكنها هنا تنفي مخاوفي وتحيلها عدماً.

لولا ذلك الصمت الخفيف كوجودها على قلبي، بين حرف النفي وأحبك لظننتُ أنها تقصد " لا أحبك " لكن الفاصلة أبت أن تسقط ولم تُرِد لقلبي السقوط.

لأول مرة أعشق صمتها ذلك، تلك

السكتة الخفيفة كادت أن تأتيني بسكتة قلبية لولا أن جاءت بعدها رصاصة الرحمة في أربعة أحرف.

سألتُها مرة أخرى: لم تخبريني ..!

تلاعبَت باللغة مرة أخرى حينما قالت:

-لا، أخبرتُك أكثر من مرة، حينما قلتُ لك " اقترب " فسمعتها أنت " اغترب " حينها كتبتُ لك " لا، يجب أن تعود " فلم يلاحظ قلبك تلك الفاصلة الصغيرة التي تختبيء خلف حرف النهي، لم تلاحظها عيناك ولم تنطقها شفتاك، تغير المعنى بسببها وتغيرت حياتي بسبب خطأك هذا.

كأنها تتحدث بلغة أخرى غير تلك التي أعهدها منذ صغري، فاصلة صغيرة قد

تُحيل ليالي قلبٍ لمأتمٍ تعلو فيه أصوات الصراخ المكتوم، كلمتان تتفِقتان في اللفظ وتختلفتان رسماً تغيِّر أقدار قلبين وتُصَّعِب اجتماعهما، شعرتُ بوجوب عودتي لمراجعة تلك الدروس التي كنتُ أسأمُ منها سابقاً حتى لا يصعب عليَّ فهمها إذا قالت " لا، يمكنني البقاء معك للأبد " فربما في المرة المقبلة قد تتناسى وضع الفاصلة أو تنسى ذلك الصمت المخيف بين ال" لا " وما يليها ففي ذلك الصمت يرسم القدر مصيري، بين نبرة وأخرى، سكتةٍ وترقُب وبين حرف نفي يؤكد ما يليه.

******

" بت مريم "

صـــباح اليـــوم التـــالي لنصـــف تلـــك المعركـــة،جاء وفـــد مـــن كبـــار قريـــة ودحامـــد لمنـــزل الشـــيخ عبـــدالرحيم البخيـــت، كانـــت نـــورا مـــن ضـــمن الحاضـــرين، والحـــاج حامـــد والـــد يـــونس أحـــد القـــادمين كونـــه والـــد القتيـــل الثـــاني وعـــم الأول ووالـــد يـــونس ودحامد مصاب الأمس.

فـــي بعـــض الأمـــاكن قـــد تحـــدث مثـــل هـــذه الصـــراعات ولكنهـــا لـــن تنتهـــي إلا بإبـــادة احـــدى القـــريتين، تكـــون الغَلَبـــة للأقـــوى فقـــط بغـــض النظـــر عمـــن أخطـــأ أولاً، إذا افتقـــدت الأريـــاف للحكمـــاء وذوي الألبـــاب لافتقـــد الريـــف حياتـــه ونضـــاره بعـــد أول حادثـــة قتـــل. العـــين بـــالعين قـــانون أبـــدي فـــي بعـــض

المنـــاطق ولكـــن يبقـــى الحـــب والتســـامح يسيطران على أكثرها، كقرية ودحامد.

جلـــس الجمعـــان، يترقـــب أهـــل ودالبخيـــت مـــا بجُعبـــة هـــؤلاء.. حتـــى الآن هـــم أعـــداء فلـــم يعلمـــوا بعـــد لِـــم هـــم قـــادمون، تأكـــدوا فقـــط أنهـــم ليســـوا قـــادمين للقتـــال. قـــد يريـــدون ديـــة أو قصاصـــاً أو عفـــوا وهـــو مـــا يثـــق بـــه بعض أهالي القرية المُضيفة.

إبتدأ الحاج حامد الحديث بقوله:

-قـــال الله عـــز وجـــل " فمـــن عفـــى وأصـــلح فـــأجره علـــى الله " يمكـــن الآيـــة دي بتوضـــح عظمـــة العفـــو وأجـــره الغيـــر معـــروف حتـــى الآن، وإنمـــا علـــى الله فقـــط.

نحـــن حزينـــون ومنكســـرون نعـــم ولكـــن لا نريـــد تســـريب هـــذا الشـــعور لقلـــب أبـــاً آخـــر

أو أماً، لا نريد سفك المزيد من الدماء وإن كنا نريد لفعلنا قبل أن نواري جثامين أبنائنا التراب، لم نأت إلى هنا لنهدد ونتوعد، أتينا لأمر خير، لنا ولكم لا نريد عيناً مقابل عيننا ولا دية مقابل أرواحنا التي فقدناها، عفونا عنهم فليعفي الله عنا. يمكنكم أن تعيدوا أبناءكم وتطلقوا سراحهم.

حالة من الصمت اجتاحت المكان، تلاها تكبير وتهليل وعناقات، ربما لم تختفِ كل مشاعر البغض والكره من بعض الأشخاص من الجانبين ولكن في تلك اللحظة كان الجميع يصافحون بعضهم، جزء منهم سأل عن حالة يونس ودحامد بعد أن سأل عنه الشيخ عبدالرحيم:

-نعلم سِعة صدرك يا أبا يونس، أبناؤنا أخطؤوا كثيراً ولكن حكمتكم كانت أكبر، وتأكد أنكم لن تجدوا منا إلا كل خير ووُد.. طمئِنُني على حالة ابنك يونس، كيف وضعه؟

يرد الحاج حامد بصوت والد فقد ابنه وابن أخيه وابن آخر له مصاباً يلازم الفراش منذ الأمس، بصوت مكسور يدَّعي الثبات والمرونة، عبثاً نحاول إخفاء ما يختلج صدورنا ونتحدث بابتسامه عريضة مليئة بالزيف، أليست الملامح مِرآة القلب؟ إذن كيف تستطيع ملامحنا خداعنا قبل خداع الآخرين؟ كان الحاج حامد يخدع كل الحضور حينما رسم تلك الابتسامة على شفتيه ولكن

فضحه صوته حينما خرج مبحوحاً أقرب للهمس:

-يونس طيِّب..

صَمَت قليلاً، استجمع شتاته ثم أضاف:

-من الأفضل أن يبقى كل شخص على حده حتى ينطفيء ذلك الغضب بالقلوب، بعضنا لم يوافق على هذا اللقاء وبعضكم ليس مسروراً بالعفو، بعض الناس تحب الدماء والدمار، قد تستغربون ولكنهم موجودون بيننا وبينكم وبينهم.. لن تجد على وجوههم آثار دماء ولا أيديهم، قد تجدهم يرتدون ربطة عنق أو جلابية مع شال مطرز.. المرء لا يعلم حقيقة كل شخص، والملامح ليست مرآةً للدواخل

ولا القلوب؛ فقد أصبحوا جميعاً يتقنون الزيف.

تبدى التفهم على وجه الشيخ، لم تنطق نورا بحرف ولم تحرك ساكناً، فقط ارتاحت دواخلها حينما سَمِعت " أننا عفونا " الآن يمكنها النوم بسلام فقد زال عن قريتها ذلك الليل الذي امتدَّ أياماً وحلَّ الصّباح.

بإمكانها وصديقتها ريم أن تعودا للمدينة غداً، كانت إجازة إسبوعية سيئة، ليست بقدر التطلعات والآمال التي بنتها ريم وهي تزور الريف لأول مرة، وليست ممتعة لنورا التي جاءت إلى هنا وهي تحمل في قلبها حزنها على شخص عزيز أضناهُ المرض .

جلست الصديقتان بمكانهما المعتاد، الطاولة اليُسرى بجانب نافذة مقهى " ريحة البُن " في الجزء الشمالي من المدينة، سألت إحداهما الأخرى بعد أن وضع النادل أمامهما كوباً من النسكافيه وآخر من القهوة السادة وانصرف:

-نور، أرى أنكِ لستِ بخير منذ أيام، ماذا يحدث؟

-لا شيء، مرهقة فقط ..!

-متأكدة؟

-نعم!

-هل ذلك الشخص يقربُكِ..؟

انتفضت نور من مقعدها تلتفت يميناً ويساراً، تبحث عن " ذلك الشخص " لم

تجد أحداً تعرفه فبادرت صديقتها ريم بإعادة صياغة السؤال:

-الشخص الذي أتى قبل اسبوعين، أعتقد أنه أتاكِ محولاً من طبيب آخر، ما اسمه؟

-تقصدين يوسف؟

-نعم! هل يقربك؟

تنهدَت نورا حتى كادت شفتاها أن تُحلِقان، ليتها تستطيع الاعتراف أنه يقربها حُباً وليس دماً، أو أنه يقيم بقلبها ويتخذه غاراً لتأدية تبتُلاته العشقية، ولكن شيء ما منعها من إخبار صديقتها، ربما لأنها لاحظت أنها تسأل عنه كثيراً في الآونة الأخيرة ولم تنسَ نور أيضاً نظرات صديقتها له حينما أتى

بـــالأمس للمقابلـــة الثالثـــة. الغِيـــرة أول دلالات الحب فمَن لم يُحب لن يغِير.

-أين سرحتِ..؟ إنني أُحدِثُكِ.

-لا شيء، هل يمكننا الذهاب؟

-لم تحتسِ قهوتك!

-لا أريدها، لم تعجبني..

نهضـــت معهـــا ريـــم علـــى مضـــض، هـــي ليســـت لـــم ترغـــب بـــالقهوة فقـــط وإنمـــا لـــم ترغـــب بكـــل ذلـــك النقـــاش، خرجتـــا مـــن المقهـــى وذهبـــت كـــل مـــنهن فـــي طريقهـــا، لـــم تعـــد نـــور الـــى المنـــزل كمـــا يفتـــرض، ظلـــت تمشـــي دون ادراك تـــام منهـــا حتـــى أدركهـــا المغيـــب بـــالقرب مـــن الحديقـــة البلديـــة، هنـــا حيـــث بـــدأ كـــل شـــيء.. تـــذكُر أنـــه أتاهـــا بعـــد ذلـــك اليـــوم الـــذي صـــارحها فيـــه بحُبـــهِ لهـــا

وخرجا معاً الى هنا، حاولت أن تتمرد عليه وعلى قلبها ولكن للقلوب إصرارها دائماً، ما أن تعشق أحدهم فلن يكن من السهل إقناعها بالعدول عن تلك المشاعر، القلب هو الشيء الوحيد الذي يعيش حُراً كما يريد في هذا الوجود.. لا أحد يستطيع إجباره على شيء، إنه يفعل ما يرغبه فقط، ونحن الذين نتأذى من تلك القرارات، ثم يعود باكياً بعد خذلان ليجلس على طاولة تتوسط الذكرى والنسيان، غير قادر على الابتعاد عن إحداهما أو الاقتراب وهنا تبدأ المعاناة.

جلست حيث جلسا ذلك اليوم، كأنه بجانبها الآن، يسمع ضجيجها وأنين

روحها، دموعها تنساب بغزارة، تبكي كأنها لم تبكِ أبداً، لماذا يأتي الحب مُحمّلاً بالمواجع؟ هل يُطبخ على النار كالطعام؟ لابد لنا أن نعاني ذلك اللهيب الحارق أولاً لنستمتع بحلو المذاق لاحقاً؟ الحب نفاجاً بين تعاسةٍ وسعادة، يُخرِجُ المرء من دهاليز التوهان ومتاهات الحياة إلى عوالم مليئة بالألوان والورود، لماذا إذن يطول البكاء، أم أنه الباب الخطأ؟

كعادتها لم تستطع الحصول على أجوبة لتساؤلاتها هذه فظلت تبكي فقط واضعة يديها الصغيرتين على وجهها، تشعر وكأنه بجانبها، إحساس بالدفء غمر قلبها، لم تلاحظ مجيئه، ولم يشأ

إزعاجها، ربما أرادها أن تستنزف كل دموعها هنا حتى لا تبكي مرة أخرى حينما تأوي إلى فراشها وتحتضِن الوِساد.

-وفري دموعك، ماذا ستفعلين في لحظات الفرح؟

إلتفتت إليهِ، إزدادت بكاءً، عيناها حنفية مكسورة، أرادت عيناه مؤازرتها ولكنه أعلن القبض على دموعه وحبسها خلف زنزانة العين، قال:

-هناك أيام وردية كوجنتيك قادمة، وفري هذا العناء لها،

لن تكون كل أيامك هكذا، لابد لثغرك أن يبتسم!

-لا أريد إبتسامة لستَ سببها أو لستَ موجوداً لتراها، ليست لدي مشكلة في البكاء طول عمري، ما دمت أنت هنا!

حينها، توقف كل شيء، توقفت الحياة من حولهم، توقفت الأرض عن الدوران، الطيور وحدها مَن كانت تعيش، تغني أعلى الأقصان لتُطرب عاشقين وطأهُما الزمن! ظلت عيناهُ عليها، لا يجد ما يقوله، لم يتجرأ قلبه أن يرفضها مرة أخرى، لا زال يذكر كيف انهارت حينما أخبرها عن ضرورة فراقهما، استسلم وقتها للمرض ولكنها لم تفعل، ظلت متشبثة بذلك الأمل الضئيل وتحاول بأقصى قدراتها الطبية على شفائه. لم يلاحظ أحدهما كم من الوقت مضى حين

صـــمتٍ طويـــل، العاشـــرة مســـاء بتوقيـــت الحُـــب، المكـــان خـــالي إلا منهمـــا، لـــم تـــذهب للمنـــزل ولـــم يـــذهب هـــو لبيتـــه، كـــان وجودهـــا بجانبـــه هـــو شـــغلها الشـــاغل و احتضان عينيها هو بيته وملاذه.

*****

" يونس ودحامد "

إســـبوع إنقضـــى منـــذ تلـــك الإصـــابة، عـــاد إلـــى العمـــل بالمزرعـــة حتـــى يتناســـى حزنـــه ويعـــود منهـــا متـــأخراً، معظـــم وقتـــه خـــارج المنـــزل، لـــم يبـــقَ هـــو ذات المنـــزل الـــذي احتضن طفولته وأخيهِ!

جـــاء فـــي المســـاء وجلـــس مـــع عائلتـــه للمـــرة الأولـــى بعـــد تلـــك الكـــوارث، أخواتـــه ووالديـــه، وأبنـــاء أختـــه، إجتمعـــت كـــل

العائلة تحت ظلال القمر، ثلاثة " عناقريب " تناثرت بفوضى جميلة ورابعها يشغله الأطفال، كان الحاج حامد يشارك زوجته أحلام، وإبنتيهِ وإلهام تتشاركان العنقريب الآخر،ويونس في الثالث يجلس على فخذيه ابن أخته سهام الذي يحمل اسمه.

كانت الأحاديث عادية، الجو يوحي بهطول الأمطار في مكان قريب، تقول الحاجة أحلام:

-" الثريا " هذه السنة وقعت قبل زمنها!

يجيبها زوجها:اليوم الخامس عشر من مايو، هذا هو وقتها.

ترد: يوسف كان ينوي أن يزوج أخوه في ال..

يقطع يونس الحديث:

-انا أريد السفر!

انطلق البَص الحديدي من قرية ودحامد بعد أن رَكِب به كل مَن لهُ رغبة في الذهاب الى المدينة، للتسوق أو البقاء بها او اتخاذها محطة وُسطى يستعيد فيها ذاته وراحة جسده ثم يغادرها، بعض المُدُن كالعاهرات، يستقبلن كل فئات المجتمع ويفتحن أيديهن لهم، خدماتهن مقابل مالهم، تجارة حرة خسارتها أكبر من فائدتها، مَرَّ البَص بقرية ودالبخيت وظل يطوف بها يعتليه من كل شارع شخص.

داخل البَص على أحدِ المقاعد المطلةعلى الفراغ وبيوت الطين، جلس

يونس ودحامد يُرسل نظراته إلى الطُرقات، الأطفال يلعبون كرة قدم مصنوعة محلياً، ما ذنب هؤلاء في قضية الثار؛ لماذا يفقد أحدهم والده أو أخاه في معركة خاسرة كتلك المعارك التي تدور بين جيشينٍ من ذات الدولة؟

لم يلاحظ وجود شخص بجواره ولم ينتبه لجلوسه على المقعد المجاور، ألقى نظرة سريعة عليه ثم ابتسم ليُحيِّيه وعاد إلى شروده، طاف السائق بالقرية قليلاً بعد ثم غادرها متوجهاً لقرية تليها، تمتد القُرى طول الطريق الترابي الى المدينة،تخرج الباصات الحديدية والبكاسي عند الصباح الباكر لتقل الناس من مكان لآخر، تطوف كل القرى وكل

أزّقتها وطُرُقاتها،الرمال هي من تَقود السيارات هنا، تعطِفها حيث تريد بالتراكم في مكانٍ واحد فيضطر السائق لإتخاذ طريق آخر، كتراكم الأحزان بداخل المرء، يجبره على الانحراف وتغيير مساره و ربما تصرفاته.

-ماذا حدث معكم؟ هل انتهى الأمر؟

صوت أحد من خلف مقعد يونس ودحامد، لم يُعيره اهتماماً وظل في شروده، يعلم أنه ليس المقصود، يجيب الشخص الجالس بجانبه:

-اطلقوا سراحنا بعد أن سحبت نورا البلاغ.

-قالوا لي أن ابنة عمك هي مَن بلغت عنكم فلم أصدق ذلك!

-نعم، فعلت.

انتبه يونس للحديث الذي بدأ واضحاً الآن، الشخص الذي يجلس بجواره هو قاتل أخاهُ وابن عمه، هل يُخرج سكينه ويغرسها فيهِ؟ إنه تصرف جبان بالنسبة له، أدار وجهه له وتمعن في تفاصيل وجهه، جبهته عريضة يعتليها شَعر خفيف، عيناهُ صغيرتان جاحِظتان، أنفه طويل أسفله فمٌ امتلأت شفتاهُ بالتبغ، له لحية وشاربان كثيفان، كأنهما أخذا كل نصيب راسه من الشَعر! يرتدي بنطالاً أسوداً وقميص باللون الأزرق، يبدو كمهرج تماماً،شعر بوخزة في قلبه، هذا هو مَن حرم أخاهُ من حياته وسلبها

منه، أي عقاب يستحقه؟ الموت قليل عليه.

-لكن لماذا تفعل هكذا أمر؟

يرد بسخرية:

-تريد أن تحافظ على نسل القرية، تخاف من ودحامد وأهله.. تباً لها.

-ما قصتك مع ودحامد أنت، فهو لن يخطيء على أحد، إلا إن أتيتُه على حقه!

لم يدرك أحدهم وجود ودحامد على المقعد الآخر!

-هراء، لا أعلم ماذا ترون فيه، حتى أخي يدافع عنه، هو أكثر شخص يمتلىء سوءًا.. كأنه وليٌ صالحٌ لتتحدثوا عنه هكذا، هو مجرد شخص، وتمنيت لو

وجدتـــه هـــو ذاك اليـــوم عوضـــاً عـــن أخيـــهِ. جميـــع الركـــاب أرخـــوا آذانهـــم ليســـمعوا هـــذا الحـــوار، بعـــض الأشـــخاص مـــن قريـــة ودحامـــد وخارجهـــا يعلمـــون أن يـــونس متواجـــداً بهـــذا الـــبَص ولكـــنهم فضـــلوا الصـــمت، ممتعضـــين مـــن هـــذا الرجـــل وحديثه.

قال الصوتُ من الخلف:

-لن تستطيع هزيمته!

-بلـــى، لقـــد فعلـــت، وجدتـــه ذات يـــوم أســـفل قمـــة الـــتلال فصـــارعته وهزمتـــه ولـــولا أنـــه فـــر هاربـــاً لنِلـــتُ منـــه، إنـــه شـــخص جبـــان حقاً!

أصـــبح الـــبص علـــى مشـــارف المدينة،مســـح الجميـــع الغبـــار عـــنهم واســـتعدوا للنـــزول،

منهم مَن أنزل حقائبه من الدرج العلوي ومنهم مَن تفقد أكياسه وحاجياته، شخص ينزل من أعلى البَص للداخل أثناء سير المركبة، يبدأ بجمع النقود من الرُكاب واحداً تلو الآخر، ما إن مدَّ له يونس نقوده رفض أن يأخذها معلِلاً:

-شخص بالأعلى دفع ثمن مقعدك.!

تساءل يونس بإستغراب:

-مَن هو؟

أجابه الرجل وقد أصبح خلفه يواصل عمله:

-لا أدري، ولكنه من قرية ودالعمدة، قال لي لا تأخذ من يونس، ثم دفع ثمن مقعدين.

عم السكون البَص، الجميع ينظر نحو يونس، متسائلين:

-هل هذا يونس ود حامد نفسه؟

تتقلب أعيُنهم بين يونس وبين ذلك الشخص الذي يجاوره وقد أصبح يتململ في جلسته، نظر إلى يونس بريبةٍ ورُعب واضحين، أعاد يونس نقوده الى محفظته ثم التفت إلى ذلك الرجل دون أن ينطق، شعر هو بالإنهزام أمام نظراته الصامتة، أحياناً لا نحتاج لأن نقول شيئاً فصمتُنا انتصار أمام مَن لا يستحق حديثنا، استخدم يونس إسلوب الصمت، فشعر الرجل بجانبه بالإهانة حينما أدار يونس رأسه للناحية الأخرى دون أن تنطق شفتاهُ،قال الرجل في

المقعد الخلفي : لماذا الصمت الآن؟ ،لقد كنت تتفاخر بهزيمتك ليونس، هاهو أمامك وقد هزمك بصمته.

لم ينطق أحد وسارت المركبة وهي تلتفح ثوب السُكات حتى المدينة وهناك انطلق كل شخص لوُجهته.

بدأ يونس في السير دون وجهة، يريد أن يتعرف على هذه المدينة وإن كان قد أتى إليها سابقاً فرحلاته لم تتعد كونها رحلات يوم واحد أو بضع ساعات لشراء حاجاته والعودة للقرية مرة أخرى كحال الكثيرين مثله وبعض التُجار من الريف والمزارعين.

ساقته قدماهُ لساحة كبيرة تتوسط المدينة، بها الكثير من الناس، يفترشون

الأرض الخضـــــراء وأمـــــامهم بعـــــض الأوانـــــيء الفضـــية وأكـــواب مـــن ورق وأخـــرى زُجاجيـــة، ســـاقية كبيـــرة فـــي الزاويـــة، إلتـــف حولهـــا النـــاس بمختلـــف أعمـــارهم، هنـــاك رجـــل يأخـــذ بيـــد ابنتـــه ويهـــم بـــالركوب، شـــابٌ وفتـــاة يصـــعدون، امـــرأة وطفـــل صـــغير، فتاتـــان، ولـــدان، عَبَـــر يـــونس أمـــامهم ومـــا إن تجـــاوزهم حتـــى أتـــاه صـــوت الســـاقية تـــدور والكثيـــر مـــن الصفافير والصراخ..

إختـــار لنفســـه مقعـــداً بجانـــب الســـور، بعيـــداً عـــن ذلـــك الضـــجر الـــذي يـــراه فـــي هـــذا المكـــان رغـــم أنـــه يمتلـــيءُ بالحيـــاة، ولكـــن لكـــل شـــخص رؤيتـــه، فقـــد نُعجـــبُ بمـــا لا يطيقـــه أحـــد ســـوانا، وقـــد لا نطيـــق مـــا يـــراه

الآخرون سبباً لإستمرار الحياة، تختلف أذواق الناس وطباعهم ولا يمكن لأحدٍ فرض شيء على الآخر، لكلٍ خصوصياته وحرية تقبُله للأشياء، بل حتى للناسِ نفسهم.

لا يعلم ما المدة التي قضاها جالساً في مقعده، أمامه ضجيج الآخرين وإستمتاعهم بحيواتهم وخلفه ضجيج السيارات وأبواقها المضجِرة، ولكنه لا يعير كل هذا انتباهاً؛ فقد كان ذهنه مع أخيه، يتذكر أحداث ذلك اليوم الذي قال فيه أنه يرغب بالزواج ويريد أن يتزوج يونس معه، تلك الأحلام التي رسمها وذهب دون أن يسقيها الماء ليحصد بذرتها، ذلك العمر الطويل الذي كان

يمكن أن يعيشاه معاً جنباً إلى جنب، تسللت دمعة دافئة من عينيهِ لم يلاحظها، فتوالت الدموع تسوق نفسها حتى تموت بين لحيتهِ، أفاقَ من شروده بلمساتٍ يدٍ صغيرة تمسح دموعه، كانت طفلة بهية الطلة، وجهها مُشرق رغم ذلك الحزن الذي بدا واضحاً عليه، ظلت تنظر إليهِ بعينيها البريئتين المتساءلتين، مسح دموعه وأخذ بيدها وداعب شعرها قليلاً ثم نادى لأحد الباعة المتجولين وقد كان يدفع عربة صغيرة للآيسكريم، طلب لها شُعلةً من الآيسكريم وأجلسها بجانبه سألها:أين يجلس أهلك؟

لم تنطق الفتاة بكلمة، ظلت ممسكة بالآيسكريم ولم تتذوقه بعد، تخترقُ

نظراتها الحزينة جموع الناس أمامها، التفتت إليه وقد شارفت على البكاء، قالت بصوتٍ طفولي يمتلىء عذوبةً وحزناً:

-أخي يجلس بالمنزل.

لم يلاحظ بعد إعتصام دموعها أمام مقلتيها:

-إذاً أتيتِ مع والدكِ وأخوانك، أين هم؟

حينها إستطاعت دمعة منها فض الإعتصام وتسللت خارج المحيط آذِنة لسرب الغيوم خلفها بالهطول، قالت وسط بكاؤها:

-لا والد لي ولا أخوان، أتيتُ وحدي.

وغاصت في موجة من البكاء، كانت قبل قليل تمسح دموعه بكفيها الصغيرين

والآن تبكي هي، في كثير من الأحيان يمسح المرء دموع الآخرين ويواسيهم وهو أكثرهم حاجة للمواساة، يعلمون حجم معاناة الآخرين وحاجتهم ليدٍ تُمَد لهم فيبسطون أيديهم كل البسط وأيدي الآخرين مغلولة إلى عنقهم لا يلحظون أن ذات المعاناة تكتسي الوجه الآخر، وأن تلك اليد التي بُسِطت لهم لنجدتهم هي نفسها تفتقِدُ مَن يُنجدها، وربما لهذا السبب تجدهم يسارعون لمواساة الغير.

كانت هذهِ الطفلة فاقد الشيء الذي أعطاهُ،أخذها يونس بين يديه وظل يمسح دموعها ويداعب شعرها حتى إطمئنَت وتوقفت عن البكاء، روت له حكايتها من وفاة والدها ووالدتها

وبقاؤها وحيدة مع أخيها الذي كان يعمل في مواقع البناء ولكنه مرِض في الفترة الأخيرة وساءت حالتهم ولم تجد هي مخرجاً رغم صغرها في السن سوى خروجها والتسول للآخرين لأجل قطعة خبزٍ تغنيها وأخيها عن جوع!

لأول مرة لاحظ يونس لِما ترتديهِ، فستان قديم ومهتريء ممزقة أطرافه، قاوم رغبته في البكاء، أمسك بكفها الناعم وتوجها معاً لتلك الزاوية التي توجد بها الساقية،لم يتحدث أحدهما مع الآخر، كانت نظراتها تسرق نفسها بين الفينة والأخرى لتستقر على وجهه، ملامحه مطمئِنة وحزينة نوعاً ما ولكنه وسيم جداً، إستطاعت أن تلاحظ هذا

رغم صغر سنها، يبدو تائهاً بعض الشيء، فكرت في نفسها ببراءة أطفال أنه وحيد أيضاً، صعدت على الساقية بعد أن جلس هو وأفسح مجالاً لها، وحينما كانا على القمة أشار لها على الأنوار الكثيرة المضيئة ملء نظرهم:

-ذلك النور الذي يتلألأ ويلمع وسطهم، هل ترينه؟

-نعم، ذلك الذي في المنتصف

-أريدك أن تكوني هذا النور.

لم تفهم ما الذي يقصده، فقالت ببراءة ملحوظة:

-ألن تقتلني الكهرباء؟

أخرجته تلك الجملة من حزنه فابتسم وقال:

-لا حاجة لكِ بالكهرباء لأن تُضيئي، يحتاج الإنسان شعلة من الأمل وبعض العزيمة ليتلألأ، مثل ذلك المصباح تماماً..

-فهمت، أنت تريدني أن أبدو مختلفة، أن أنشر الضياء حولي، ولكن هذا الأمر يحتاج الكثير من...

لم تستطع أن تُكمل جملتها ولكن يونس فهم ما أرادت قوله فإستدرك:

-لا نحتاجُ مالاً لأجل أن نُضيء، يكفي فقط أن تكون أرواحنا طيبة.

-ولكن أخي طيبٌ جداً، لماذا لم يُضيء؟ هو منطفيء جداً ونائم أكثر الأوقات، إن وجد بعض المال وتعالج يمكنه أن

يُضيء مرة أخرى، ثم يمكنني أن أضيء إن تعلمتُ وعمِلتُ، بلى نحن نحتاج مالاً.

أدرك يونس أنه لا يخاطب طفلة وإن بدا الأمر كذلك، فقال محاولاً استدراك ما طغى على عقلها:

-المال ضروري نعم ولكنه ليس كل شيء، يمكنك أن تفعلي ما ترغبين بفعله دون مال..

قاطعته:

-خطأ، لا يمكنني فعل شيء.. إن كنتُ أستطيع فعلاً لعالجتُ أخي! ،لم يستطِع يونس كبت رغبته في البكاء هذه المرة، فسقطت دمعة حائرة على خده..

-لماذا تبكي كثيراً، هل أخوك مريض أيضاً؟

-لا، ولكن أخي توفي..

-أنا لم يكن لدي أخ أبداً غير يوسف ، هل كان يساعدك على جمع المال؟ لو كان لي أخ آخر لكان معي الآن، هو يجمع المال لأجل إطعامنا وأنا أجمعه لأجل علاج أخي!

كانت لحظات من الحزن والبكاء مع تلك الطفلة، ولكن سرعان ما تبدلت الأجواء مرحاً وضحكاً حينما خرجا من تلك الساحة، يمشيان على الطرقات ويدها في يديه كأنها تسترجع لحظات مع والدها، عاشتها أو ربما لم تُعِشها معه أبداً، وكان يونس وقد طغى عليه إحساس الأبوة، سعيداً بتلك الطفلة التي جاءته من العدم ودخلت إلى حياته

وغاصت فيها دون إذنٍ منه ودون أدنى مقاومة، بل دخولها غير الكثير به، كان قادماً إلى المدينة وهو لا يعلم ماذا يفعل، كان يهرب من ذكرياته في القرية وشوارعها التي يرى فيها ملامح أخيه، لطالما كان لبعض الناس أثرهم في حياة الآخرين، بعضهم يكون ملاكاً يسحب همومهم وأحزانهم دون شعور منهم والبعض الآخر يكون سبباً في تلك الأحزان وبقاؤها وتمدُدها، كانت هذه الطفلة الملاك الذي يحتاجه يونس دون وعي منه بحاجته لها، ساقها القدر إليه ولم يقاوم هو في اجتياحها له والغوص في أعماقه، بل وقد دخلت قلبه كما يدخل الهواء للغرف، دون أثرٍ أو صعوبة.

" يوسف "

أفاق من نومه على صوتِ أخته ويدها تضرب برفقٍ على كتفه، طالعها بعينينٍ ناعستين وجدها تُشير على المدخل وإبتسامة خفيفة على محياها، انتفض من مرقده وهو يرى شبح رجلٍ يقف على المدخل، لم يتمكن من رؤيته فقد كان يقف بجانب الباب ولكن ظله الملقي على الحائط المعاكس أخبره أنه رجل، التفت ناحية اخته وسألها بغيظٍ:

-ما الذي فعلته هذه المرة؟ لا تخبريني أنكِ سرقتِ شيئاً.

اختفت الإبتسامة من وجه الطفلة، ركضت نحو المدخل وأخذت بيد الرجل وسحبته للداخل، استأذن للدخول

فأذِن له يوسف وأخذ يعتذر:

-أنا آسف جداً فهي لا تزال طفلة وكما ترى فأنا مريض ولا أستطيع أن أكون معها طوال الوقت، اعتذر عما فعلته معك وأرجو أن تسامحها.

ظل الرجل واقفاً ينظر إليها شارداً وكأنه ليس هنا، وعندما طال سكاته سأله يوسف:

-ماذا فعلت لك؟ هل سرقت منك شيئاً؟

لم يُجيب أيضاً، أمسكت الفتاة بيده وشدتهُ، نظر إليها وعاد ونظر لأخيها وقد تملكته الحيرة فقال:

-عفواً، كيف حالك؟

-أنا بخير، لم تخبرني ماذا سرقت منك؟

-مَن؟

-سُهى

-مَن سُهى؟

أجابت الفتاة:أنا

تذكر أنه لم يسألها عن إسمها أبداً، نظر إلى أخيها وعلِم خطورة الأمر الآن فقال شارحاً:

-لالا، هي لم تسرق شيئاً..

صمت قليلاً ثم أضاف:

-أو بالأحرى، قد فعلت.

-ماذا؟

صرخت الفتاة في وجهه، ثم قال الأخ:

-وهل وجدتَ ما سرقته منك؟ فكما ترى لا يمكننا دفع ثمنه، إنني آسف جداً.

-ما سرقته لا يُقدر بثمنٍ، لا يوجد أحد على هذه الأرض يستطيع دفع ثمنه..

ازدادت حيرة الأخ وأخته، وقفت الفتاة أمامه وقد زالت عن وجهها كل علامات المرح التي دخلت بها قبل قليل، سألته بحيرة وحزن وغضب:

-ما الذي تفعله؟ أنا لم أسرق شيئاً منك.

قال أخيها:

-لا داعي للكذب الآن، فلماذا يأتي إلى هنا إن لم تفعلي شيئاً؟

جلس يونس أمام الفتاة وقد أصبح رأسه بمستوى إرتفاع رأسها، أخذ وجهها بين يديهِ وقال بنظراتٍ ملؤها الحب والإمتنان:

-بلى، لقد سرقتِ حُزني!

-ماذا؟

يصرخ يوسف:نعم سيدي، أختك وجدتني في حالة يرثى لها، والآن وأنا أقف أمامك أصبحت حالتي يُحسد عليها.

ارتسمت الإبتسامة على وجه الفتاة مرة أخرى، ظلت تتبادل النظرات مع أخيها وشيء من الفخر يكسو وجه الطفلة.

أكمل يونس:كنا معاً طوال النهار ولم أشعر بالوقت أبداً حتى حل الظلام، فأتيتُ معها الى هنا لأطمئن عليك ولأراك فقد أخبرتني بأنك طريح الفراش.

-شكراً لك، لقد ظننتُ أنها...

-لالا، لا يوجد شيء من هذا ولا أعتقد أنها تسرق شيئاً فهي لطيفة جداً، ما الذي تُعانيهِ أنت؟

-الحمـــدلله، لا شـــيء، بعـــض الإلتهابـــات فقط.

-هل قابلت طبيباً؟

-لا حاجة لذلك، سأصبح بخير قريباً.

قالت الطفلة:هو يقول هذا كل يوم!

طلـب منهـا أخوهـا أن تـذهب وتجلـب بعـض الماء لضيفها ثم قال:

-هـــي لا تـــزال صـــغيرة ولا أريـــدها أن تعلم،إننـــي أذهـــب كـــل أثنـــين وخمـــيس لغســـيلِ الكِلـــى، هنـــاك مَـــن يقـــوم بـــدفع التكـــاليف، لا أعلـــم مَـــن هـــو ولكـــن يخبروننـــي فـــي المستشـــفى أن كـــل التكـــاليف مدفوعـــة، ربمـــا يكـــون أحـــد الأطبـــاء، جـــزاه الله خيراً أينما كان.

-على هذه الأرض مَن لم يمت الخير في داخله بعد.

جاءت سُهى تحمل كوباً من الماء ناولته ليونس ثم وضعه جانباً بعد أن شرِب منه واستأذن للخروج ووعد الطفلة بالعودة مرة أخرى.

******

" يونس "

خرج من المنزل وتملؤه راحة غريبة بعد أن حمِل هم هذا الشاب لبضعة ساعات، هم أنساه همه، هو لا يعلم حتى الآن أين سيقضي هذه الليلة وماذا سيفعل غداً أو إلى أين سيتوجه، ولكن بعد أن إلتقى تلك الطفلة نسيَ كل همومه ومع مرور الوقت سرقت حزنه منه،

والآن غمرته الراحة بعد أن علِم أن هناك مَن يقوم بتغطية تكاليف علاج أخيها، رغم حزنه لمرضه، وجد نفسه أمام إحدى المحلات الكبيرة لمستلزمات المنزل فدخل واشترى من كل شيء، حلويات لسُهى ومواد تموينية، ذهب لقسم الملابس فاشترى لها فستاناً يليق بجمالها وبعض الملابس لأخيها.

إتسعت عينا يوسف حينما رآه ويده محملة بالأكياس، أخبره أن لا حاجة لأن يتعب نفسه كل هذا القدر وأنه وأخته لا يحتاجون شيئاً، قال بدوره:

-هذا لا يعادل شيئاً مما فعلته سُهى معي، كل هذا لأجلها.!

كانت هي سعيدة بتلك المشتريات، ظلت تفتح الأكياس واحداً تلو الآخر، عرضت الثياب التي أحضرها لأخيها عليه، وما أن أخرجت الفستان المخصص لها حتى صرخت فرحاً ثم أخذته وركضت به، عادت بعد قليل وكانت قد إرتدته، بدا أجمل على جسدها الصغير وبدت أكثر سعادةً به..

-لا أعلم كيف أشكرك، مضى وقت طويل ولم أر سُهى تضحك هكذا، كل هذا بفضلك، نحن ممتنون لك جداً.

-لا تقول هكذا، الفضل كله لله، أنا لم أفعل شيئاً، وكل هذا لا يساوي شيئاً مما فعلته هي لي،أتت سهى وسحبت يونس من يده وخرجا معاً، ظلا يطوفان

بالشوارع كأنها تحتفي بثوبها الجديد، أو تحتفي بذلك الرجل الغريب الذي لم تتخط معرفتها به بضع ساعات، وقد أدخل البهجة لحياتها في هذه الفترة الوجيزة، لم يشعران بالوقت حتى عادا منتصف الليل وقد غلبها التعب فجاءت مُنهكة، ارتمت بجانب أخيها وهي تحاول إيقاظه، بينما وقف يونس في الخارج وودعها وتوقف حتى دخلت ثم عاد أدراجه لا يعلم وُجهة له، ظلت سُهى تُحاول إيقاظ أخيها ولكن لم يفلح الأمر، إرتعدت وخرجت تركض خلف يونس حتى أدركته على بعدٍ من المنزل، أخبرته بمحاولتها لإيقاظ أخيها وأنه لم يستجب لها، جاؤوا يركضون حتى أصبحوا فوق

مرقده، ثم خرج يونس باحثاً عن سيارة، عاد بعد قليل ومعه رجل وإمرأة، ساعد الرجلان أخ سُهى بعد أن أفاق بنصف قدرة والتي لم تسعفه على الوقوف فساعدوه حتى أوصلوه للسيارة وإنطلقوا للمستشفى الأقرب لهم.

شكر يونس ذلك الرجل وزوجته على مساعدتهم ثم عاد للداخل حيث وجد سهى بين دموعها، تلك الملاك البريء بفستانها الوردي، ارتمت بين يديه ما إن رأته وأطلقت العنان لدموعها.

جاء الطبيب ليونس وسحبه بعيداً عن الطفلة ثم أخبره:

-هو يحتاج لنقل دم ووظائف الكلى متأخرة جداً، نتوقع أن تسوء حالته أكثر

ولهذا لابد من عملية نقل كلى ولا يوجد متبرع حتى الآن، إننا نبحث منذ زمن.

دون أن يشعر وجد يونس نفسه أنه يطلب من الطبيب إجراء الفحص عسى أن تتطابق أنسجتهم فيمنحه إحدى كليتيهِ.

سأله الطبيب:

-هل تقربه بصلة؟ أعتذر عن سؤالي، هذا لأنني لم أراك معه من قبل فهو مريضي منذ فترة.

التفت يونس للطفلة وقال بعد أن أشار إليها:

-أنا أقربُ لهذه الطفلة

لم يفهم الطبيب ولكنه تجاوز قائلاً:

-حسناً، تعال معي.

ذهب خلفه وأجرى الفحص ثم عاد لسُهى التي وضعت رأسها على صدره دون أن تقول شيئاً.

مرت اللحظات كئيبة مليئة بالخوف والترقب، أخبرهم الطبيب أنهم أجروا له عملية نقل الدم وهو بخير الآن، دخلوا عليه وما أن فُتح الباب حتى ركضت إليه سُهى وارتمت في أحضانه وهي تبكي، وقف يونس بعيداً يراقب المشهد وهو يتخيل حالة سُهى دون أخيها وظل يدعو ليوسف بالصحة والعافية وطول العمر.

غريب أن يأتي شخص من العدم ويصبح كل أولوياتك واهتماماتك، حتى صباح هذا اليوم لم تكن سُهى في عالم

يونس،والآن هي كل عالمه، لقد أنسته عالمه السابق وحزنه.

أنسته كل ما مر به في الأيام الأخيرة في القرية، بل حتى أنسته نفسه، تلك الطفلة التي لم تر شيئاً للدنيا بعد، استطاعت أن تجعله يرى ما لم يستطِع رؤيته قبلها،يحتاج الإنسان لمن يُعيد توجيه نظراته واهتماماته للجانب المضيء من الحياة، ولمن يجعله يدرك أن الفرحة موجودة في الإتجاه المقابل للحزن تماماً.

اطمئنّ عليه وتمنى له تمام الشفاء ثم خرج وترك سُهى معه بالداخل.

صحيح أنه لم يكن يعلم أين سيقضي ليلته هذه ولكنه بالتأكيد لم يتوقع أنه

سيقضيها خارج غرفة بالمستشفى وهو مرافق لشخص لم يعرفه إلا قبل ساعتين أو ثلاث. غريبة هي مُنحنيات الحياة وتعرُجاتها، بين لحظة وأخرى يصبح لدى المرء ما يكترث لأجله بعد أن كان هذا الشيء عدماً في حياته.

******

" العم حامد – القرية "

أشرقت الشمس وقد وجدته بين أرضه يقوم بتنظيفها من الشجيرات الصغيرة والحشائش التي تضعف نمو النباتات وتؤخره، وقد تتسبب في فشل محصول بأكمله، العم حامد رجل معروف بقوته وحكمته ولم يستغرب أحد حينما أتى يونس ابنه مثله فقد أخذ منه كل طباعه،

وبينما هو مشغولاً بالحفرِ أتاهُ أحد الأشخاص على ظهرِ حمارٍ فرفع يده للسماء ثم أسقطها عليهِ فاصطدمت عصاه برأس العم حامد الذي فشلت محاولته في تفادِيها، فهوى ساقطاً على أرضه وانصرف الرجل من حيث أتى.

قبل يومين :

احتدم النقاش بين الجالسين وقد كان العم حامد أحد الملبين لدعوة العمدة التي تهدف للتآلف بين قلوب المتخاصمين وقد كانت تقام في منزل العمدة، أتى العم حامد وأخوه يونس وهما والدا القتيلين، ومعهم كبار الأشخاص من قرية ودحامد ومن الطرف الآخر جاء والد الجُناةِ وأعماهم وبعض أقربائهم وكبار قرية

ودالبخيت وشيوخها. بعد أن فشلت محاولة الشيوخ في تهدئة النقاش والذي كاد أن يتحول لاشتباك بالأيدي، رأوا أنه من الأفضل إنهاء هذه الجلسة لحين صفاء النفوس وهدوئها ومن ثم أخذوا يخرجون جماعات وفرادى، وحين نهض عم الجُناةِ وأراد الخروج التفت للعم حامد قائلاً:

-هذا الموضوع لم ينتهِ بعد، وإن لم أُلحِقُك بابنك لن يكون اسمي عيسى.

حينها صرخ فيه شيخُ قرية ودالبخيت وأمره أن يخرج وقال معتذراً:

-لا تؤاخذونا، لم نتوفق في اختيار الأشخاص القادمين معنا.

قال العم حامد:

-لا، تحملنا الكثير، أما الآن فطفح الكيل، هذا الأمر لا يمكن إنهاؤه بالنقاش ونحن جاهزون لكل وسيلة ولكل طارىء.

قال الشيخ وهو يمنح العم حامد ظهره:

-لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

بعدما انفضَّ الناس بقي العم حامد مع أخيه يونس والد القتيل الأول حامد، قال له يونس:

-هؤلاء القوم لن ينتهوا بهذه الطريقة، ربما يجب علينا فعل شيء.

-إنني أفكر في الأمر نفسه ولكن نحن لن نبدأ، فلننتظرها تأتي منهم.

-تأتي منهم؟ ما الذي سيأتي بعد؟ لقد قتلوا ابنك وابني، هل ننتظر حتى يقتلوا أحدنا؟

-لن يتجرأ أحدهم ويمسنا، ولا داعي لسحب كل القرية خلف هذا الصراع، الكثير من الناس سيموتون إن نشبت حرباً بين القريتين. أحتاج لإنهاء الموضوع بأقل الخسائر.

-ماذا في رأسك؟

-انتظر وسأخبرك في الوقت المناسب .

-حسناً، كيف حال يونس، ألم يتصل أو يرسل؟

-لا نعلم عنه شيئاً منذ أن سافر، سيتدبر أمره هناك، فقط أخشى عليه أن يسافر لمكان آخر غير المدينة أو يخرج من الدولة كلها.

-يونس لن يفعل شيئاً كهذا، على الأقل دون أن يخبرك.

-هـذا مـا يطمئننـي، سـيكون أفضـل لـه أن ابتعـد عـن هـذه الضـجة، ومـا بقـي هنـا سنتكفل به نحن لوحدنا.

" الوقت الحاضر "

-هـاجموا العـم حامـد .. هـاجموا العـم حامد.

لـم تصـدق قريـة ود حامـد مـا سـمعته أذنهـا، أو أنهـا رفضـت التصـديق، فهـم يعلمـون أن صـاحب ذلـك الصـوت لا يمـزح أبـداً ولطالمـا مـدهم بأخبـار القريـة وطوارئها.

ركضـوا جميعـاً مـن كـل الإتجاهات،بعضـهم توجـه لمنـزل العـم حامـد وبعـض الشـباب ومَـن يسـتطيع مـن الشـياب أخـذوا عِصِـيهم وتوجهـوا لقريـة ودالبخيـت، دون حتـى أن

يطمئنوا على حالة العم حامد، فجميعهم يرى أن الأمر زاد عن حده ويجب رد الصاع صاعين بعد الآن.

*****

" دكتورة نور "

طرق خفيف على الباب، رفعت رأسها عن الملف الذي بيدها وأذِنَت للطارق بالدخول، رأت أمامها شخص بملامح وسيمة يشوبها التعب والإرهاق، ناعس العينين كأنه لم ينم جيداً او لم ينم أبداً ليلة البارحة، أشارت له على المقعد أمامها وقالت:

-يونس حامد مصطفى؟

-نعم..

-الدكتور خالد ليس موجوداً اليوم، أنا أنوب عنه و يؤسفني أن أخبرك أنك لا تستطيع التبرع للمريض يوسف،أنسجتك لم تتطابق مع أنسجته.

مسحةٌ من الحزن والخيبة ارتسمت على وجهه، قال بصوتٍ مُرهق:

-ألا يوجد شيء يمكننا فعله؟

-يمكن أن يأتي بعض أقربائكم ليقوموا بالفحص، نحن نبحث هنا عن متبرع ولكننا لم نجد أيضاً.

-عذراً يا دكتورة، فأنا لستُ من هنا،أتيتُ هذه المدينة قريباً، لا أقرباء ولا أصدقاء لي هنا. ألا يمكنكم التكفل بالأمر أنتم؟

-نحن نبذل قصارى جهدنا، سنعلمك إن كان هناك تطورا

-حسناً، متى يمكنه الذهاب للمنزل؟ لقد أكمل خمسة أيام هنا.

-اليوم مساء يمكنكم الخروج!

-حسناً، شكراً لك.

ظلت تنظر إليه حتى توارى عن أنظارها خلف باب مكتبها، عادت لتنظر الى الملف مرة أخرى وهي تتأمل اسم المريض " يوسف " هناك شيء في هذا الاسم، يبدو مألوفاً لها، لابد أنها صادفته في مكانٍ ما.. هل يكون هو؟ انتبهت إلى أنها لا تعلم سوى اسمه الأول فقط، أي حب هذا؟ الحب لا يحتاج أسماءً!

وضعت الملف على الدرج ثم خرجت وهي تتوجه لغرفة صديقتها ورفيقتها في السكن الدكتورة ريم.

استأذنت للدخول ثم أدارت المقبض، وجدت المكتب فارغاً، فأخرجت هاتفها لتتصل بها ولكنها وجدت هاتفها مغلقاً، نزلت للاستقبال وسألت عنها، أخبرتها موظفة الاستقبال أنها لم تراها تخرج، تساءلت في نفسها أين يمكنها الذهاب، هي عادة لا تُقدم على فعل شيء دون أن تخبرها. عادت إلى مكتبها ودست جسدها بمقعدها وأغمضت عيناها ولا نية لها في النوم.

بعد قليل رن هاتفها وكانت ريم، أجابت معاتبة:

-أين أنتِ، ولماذا لم تخبريني بأنكِ خارجة؟

-لم أذهب لمكان، لقد كنتُ في المعمل أتابع فحصاً، سأمر عليك بعد قليل.

******

" يونس ود حامد "

بعد أن أذِن لهم الطبيب بالخروج، أتوا إلى المنزل في مساء اليوم الخامس، كانت أياماً صعبة على يونس، فبعد أن استقبلته المدينة بسُهى وأهدتهُ إياها بنتاً، عادت لتحرمه منام عينه لخمسة أيام مُتتالية، وأهدت سُهى يونس أباً ولكنها تريد أخذ أخيها الآن، ولم تتأخر في تلك المقايضة، فبعد أن أكملت سُهى مع يونس يومها الخامس وعادوا لمنزلها، ذهب أخوها لينام،جلس يونس مع سُهى خارجاً بعد أن جهزوا الإفطار

معاً، اقترب منهم رجلٌ كبير فحياهم، ثم سأل سُهى عن أخيها فأخبرته الطفلة أنه مريض وهو نائم الآن.. قال لها:

-أخبريه أنني أتيتُ وقد أتيتُ قبل يومين ولم أجدكم، قولي له أنني أريد إيجار المنزل للشهر الماضي وهذا الشهر فقد عفوتُ له إيجار الأربعة شهور الأخرى.

قال كلامه وعاد أدراجه ولكن نداء يونس من خلفه أوقفه فعاد مرة أخرى، قال له يونس:

-سأدفع لك إيجار شهرين، ومن الآن وصاعداً ستتحدث معي فقط، هل يمكنك أن تأتي مساء غد؟

-مَن أنتَ، لم أراك هنا من قبل؟

-هذا لا يهم، من الآن ستجدني كلما رغبت بأخذ مالك.

-حسناً، سآتي غداً.

في هذه الأثناء كانت سُهى قد ذهبت لأخيها وعادت، أخرج يونس هاتفه وإتصل بصاحب الدكان في القرية، طلب منه أن يرسل له المال الذي تركه في حوزته. أجابه الرجل بحسناً ثم أغلق الخط. إرتاب يونس قليلاً ولكن صوت شيء يصطدم بالأرض في الداخل جعله وسُهى يهرولون.. جاؤوا فوجدوا يوسف ينتفضُ في فراشه، دنا منه فقال يوسف بصوت مبحوح غلبه الإعياء:

-أنا لا أعرفك، ولكن الأيام القليلة المضت كفيلة لأن تجعلني أثق بك

وأئتمنك على سُهى، هي لا تملك أحداً بعدي، إلا أنت، أوصيك عليها فضعها في عينيك.. هاتفي هناك، ستجد به رقماً باسم ريم، إتصل بها وأخبرها إن حدث لي شيء وأطلب منها أن تخبر نور وتكون بجانبها.

ظلت سُهى واقفة على مؤخرة السرير ضامةً يداها إلى صدرها وتراقب المشهد، جاءها يونس فأخذها بين يديه وأخبرها أنه بخير، إنه نائم فقط، ثم مددها بجانبه في السرير وهي ترى أنفاسه قد عادت لاستقرارها. فغفت بين أحضانه.

في صباح اليوم التالي استيقظ يونس بعد أن أيقظته سُهى، ذهب لأخيها فوجده

على ذات الحال التي كان عليها بالأمس،علِم أنه يصارع روحه هذه المرة، تذكر وصيته تلك فأخرج هاتف يوسف وبدأ يبحث عن رقم ريم وحينما وجده لم يجد رصيداً في هاتف يوسف للاتصال بها فإتصل بها من هاتفه.

******

" الدكتورة نور "

كانت مع ريم في مكتبها صباح اليوم التالي حينما رن هاتف ريم، تناولته فوجدته رقماً غريباً، فتحت الخط فأتاها صوت رجل تسمعه لأول مرة، تأكدت أن الرقم غريب عليها فعلاً كصاحبه..

-ريم؟

-نعم، مَن أنت؟

-أنا صديق يوسف، لقد طلب مني الاتصال بك إن حدث له شيء.

لم تغفل ريم عن وجود نور بالغرفة فظلت تتحدث بهدوء دون أن تُثير شكوكها ومخاوفها فهي تعلم مدى رقة صديقتها وهلعها.

-ماذا حدث؟

-هو يطلب حضورك لمنزله، هل تعلمينه؟

-انا؟

-نعم..

صمَتَ قليلاً ثم أضاف:

-أخشى أنه يتوجب عليك الاسراع قليلاً فقد لا تتمكنين من اللحاق به!

-أنا قادمة!

سألتها نور بقلق:

-هل كل شيء بخير؟

ولكن ريم لم تكن هنا، كان جسدها فقط، هزتها نور من كتفها..

-أنا آسفة، هل قلت شيئاً؟

-سألتك هل كل شيء بخير؟

-نعم نعم، لا تشغلي بالك.

-ملامحك لا تقول هكذا، أنظري كيف أصبح وجهك مصفراً.

-لا يوجد شيء، ألم أخبرك أن لدي أخت تسكن هنا؟

-نعم!

-أخبروني أنها مريضة بعض الشيء و يتوجب علي الذهاب إليها!

-حســـناً، لنـــذهب الآن،حـــاولي أن تغطـــي مكاني ريثما أعود.

تبادلتـــا العنـــاق ثـــم خرجـــت ريـــم مســـرعة نحو الطريق.

فـــي هـــذه اللحظـــات، رن هـــاتف نـــور فكانـــت مكالمة من أهلها

أخبروهـــا فيهـــا أنهـــم ينقلـــون أعمامهـــا الاثنـــين لمستشـــفى المدينـــة بعـــد أن تعرضوا لهجوم.

******

" يونس "

شـــحب لـــون يوســـف وبـــدأ يتعـــرق وصـــوت أنينـــه يعلـــو ويهـــبط كأنفاســـه الغيـــر منتظمـــة، يـــونس علـــى جهتـــه اليمـــين وسُـــهى علـــى يســـاره هادئـــة صـــامتة تُثبِـــت نظراتهـــا علـــى

أخيهـــا دون حِـــراك، بعـــد لحظـــات أتـــت ريم،اقتربـــت منـــه فحـــاول يوســـف التحـــدث معها:

-" ريـــم، لا أوصـــيك علـــى نـــور، كـــوني بجانبهـــا فـــي لحظـــات حزنهـــا، وأخبريهـــا أننـــي لـــم أســـتطع اســـتدعائها إلـــى هنـــا حتـــى لا تعـــيش مثـــل هـــذه اللحظـــات، لـــن تحتمـــل رؤيتـــي هكـــذا ولـــن أحتمـــل ضـــعفها وانكســـارها، اعتـــذري لهـــا عنـــي، ولا تتركيهـــا لوحـــدها، وســـامحيني إن كنـــتُ قـــد أخطأتُ بحقك يوماً ما "

لـــم تســـتطع ريـــم حـــبس دموعهـــا فخرجـــت راكضـــة باكيـــة، شـــد يوســـف علـــى يـــد يـــونس كأنـــه يـــذكره بمـــا أوصـــاه بـــه، ثـــم التفـــت لأختـــه ســـهى ومـــد يـــده لهـــا فوقعـــت علـــى

صدره وهي لا تزال صامتة، داعب شعرها بنصف قدرة وقبَّل جبينها، قُبلة بدأها في الحياة وأنتهت بعد وفاته، خرجت روحه حينما عانق ثغره جبين أخته فكانت تلك القُبلة آخر أعماله. كأن روحه كانت تنتظر مثل هذا الوداع لتصعد لبارئها فخرجت بعد أن طُبعت تأشيرتها على جبين سُهى.

رن هاتف ريم في الخارج فعلِم يونس أنها لا تزال هنا، كان يحسب أنها قد عادت أدراجها، خرج إليها وهو يحمل سُهى بين يديه، أخذتها منه وانفجرت باكية، كان يوسف صديقها وأنيس صديقتها وحبيبها.. شخص لم ترى منه سوى الطيب منذ أن عرفته قبل سنة

ونصف، ظل يصارع المرض حتى فاضت روحه، لم يتخل يوماً عن نفسه ولا عن إيمانه، كان يحلم أن تكبر أخته بين عينيه ورعايته هو والدكتورة نور، ولكن للحياة مخططات أخرى كعادتها.

ذهب يونس للمنزل المجاور وطرق الباب، روى ما حدث للشخص الذي أتاه ثم عاد يونس فأخذ ريم والطفلة معه وأدخلهم منزل الجيران. ثم قام ومعه جاره بغسل يوسف وتكفينه وذهب مع أبناء الرجل لمواراة الجثمان الثرى.

حين عودتهم جلس يونس في الصالون مع سهى وصاحب البيت، بعد أن استأذنت ريم، حاول يونس أن يُحدث سهى ولكنها غائبة تماماً، نظراتها مثبتة

على مكان واحد، خشي يونس أن تكون قد دخلت في صدمة، وقد أيَّد الرجل شكوكه حينما سأله مستفسراً:

-هل تكون قد دخلت في حالة صدمة؟

-هذا ما أخشاهُ

اقترح يونس أن يأخذها للمستشفى فاصطحبهم الرجل بسيارته..

******

" العم حامد "

كان يستلقي كالجثة الهامدة على أرضه حينما وجده أخوه يونس وبعض أقربائه من قريته، كان يخرج من مزرعته قبل العصر بقليل وحينما لم يأت العم حامد لمنزله حتى بعد المغرب خرجت زوجته وأخبرت أخيه يونس، فجاء ومعه بعض

شباب القرية ليبحثوا عنه فوجدوه بين سرابات الزرع مستلق دون حراك. أخذوه للمنزل وطلب أخوه يونس الاَّ يعلم أحد بالأمر حتى صباح الغد لأنهم لا يعلمون ردة فعل القرية وقد حل المساء.

في الصباح وعندما ذيع الخبر بالقرية خرج كل شباب ودحامد الى قرية ودالبخيت، إنهم لم ينسوا تهديد ذلك الرجل للعم حامد، لذلك كانوا مؤمنين أنه هو مَن هجم عليه، وصلوا القرية المعادية ولم يتطرقوا لأحد، إلا مَن حاول اعتراضهم حتى وصلوا منزل عيسى وكان بجوار منزل أخيه، ذلك الذي قتل ولداهُ أثنين من أبنائهم،وقفوا أمام منزل

عيسى ونادوا عليه، طلب بعضهم الدخول وضربه أمام أهله ووسط منزله ولكن صوت حاسم وسطهم وقد كان ابن أخت يونس ودحامد:

-لا تتسوروا منازل الغير؛ فللمنازل حرمتها.. إن كان رجلاً سيأتي بقدميه إلينا وإلا فلن نحارب نساءً..

جزء من قرية ودالبخيت كانوا يقفون بعيداً دون أن يتدخلوا، كانوا يعلمون سلفاً أن تهديد عيسى للعم حامد لن يمضي على خير، وحينما عِلموا أنه قد ذهب وهجم عليه في مزرعته إتخذوا موقفاً محايداً، ليس جُبناً منهم ولكنهم يعلمون أنهم إن تدخلوا سيجرون كل القرية للهاوية، ولهذا كانوا يحاولون

تهدئة عيسى ولكن الغلبة كانت لشيطانه وقد وقفوا الآن يرونه يتلقى عقابه. لحظات وخرج عيسى مندفعاً كالثور وخلفه أخوه، ولكن اندفاعهم اصطدم بسدِ قرية ودحامد فأصبح الرجلان تحتهم كحبات العيشِ على الرَحى. بعد حينٍ تركوهم في دماءهم وعادوا أدراجهم وجدوا أن العم حامد قد ساءت حالته فأسعفوه للمدينة.

******

" يونس ودحامد "

في المستشفى وفي واحدة من الحجرات الكثيرة التي تفتح جميعها في ممر طويل ينتهي إلى السلالم المؤدية للدور السفلي من المستشفى المخصص لقسم

الطواريء والاصابات، كانت الحجرة تضم سريراً في وسطها ومقعداً بجانبه قد شغله يونس وهو يتأمل ملامح سهى البريئة بعينيه المنكسرتين لوضعها، أخبره الطبيب أنها قد دخلت في صدمة ولكن الوضع ليس بالخطير عليها فقد تعود لوعيها في أية لحظة، كانت تنوم بسباتٍ كعصفورٍ أمِنَ الشجرة والغصن والرياح والصيادين.. فتحت عينيها ببطء ونظرت حولها وما أن وقعت عيناها على يونس حتى هبطت دموعها.

*****

" عمر "

وصلوا الى المدينة حوالي الحادية عشر صباحاً وذهبوا لمستشفى وسط المدينة،

ذلك أفضل مستشفيات المدينة، فضلوا ألا يذهبوا بالعم حامد لمستشفى جنوب المدينة لعدم كفاءة أطبائه، قام الطبيب بتنظيف جرح العم حامد وأوصاه ببعض الفحوصات ليرى إن كانت هناك بعض الالتهابات التي أصابت جسده أو الرأس حيث الاصابة.

وحينما كان " عمر " يقوم بالركض هنا وهناك، يجلب الأدوية وبعض الدِربات والحقن والأشياء التي يصفها

الدكتور لجده، توقف مصدوماً أمام إحدى الحجرات محدقاً داخلها، يبدو وكأنه نسيَ ما كان يفعله فوقف على أرضه متسِمراً ينظر بعينين متسائلتينٍ للرجل الجالس داخل الحجرة أمامه، هل

هو خاله يونس؟ ولكن ماذا يفعل خاله هنا؟ ومَن تلك الطفلة؟ لن تكون ابنته فهي كبيرة على مجيئها إلى هنا، لقد أتى قبل اسبوع فقط، لا هذا ليس خاله، أراد أن يذهب ولكن الرجل بالداخل لاحظ وجوده خلف الحائط الزجاجي للغرفة وحينما التقت أعيُنهم تأكد كل منهم أن هذا فلاناً بعينِهِ وكل شخص يسأل نفسه " ماذا يفعل هذا هنا؟ ".

******

" ريم "

منذ أن خرجت من نور صباح هذا اليوم وهي لم تعُد للمستشفى مرة أخرى ولم تهاتفها، عادت إلى السَكَن مباشرةً وإنزوت على نفسها في غرفتها، حل

المساء ولم تحِل نور بعد، كانت قد هيأت نفسها لتُحدثها حين عودتها لأنها لا تعلم كيف سيكون وقع الخبر عليها، تعلم أنها يجب أن تكون بجانبها وأمامها حينما تخبرها أن نصفها الآخر قد فارق الحياة، مضى الوقت ولا زالت ريم في فراشها تضم رجليها ويديها إلى صدرها وقد جفت دموعها كلما تذكرت صديقتها نور وما ينتظرها، ليتها تعلم أن نور في مصيبة أخرى الآن فقد جاؤوا بأثنين من أعمامها إلى المدينة بإصاباتٍ خطيرة متفاوتة. حينما رأت أن الوقت قد تأخر ولم تظهر نور بعد حاولت الاتصال بها ولكن هاتفها كان مغلقاً هي الأخرى،بدأ عقلها بالهزيان، هل وصل الخبر لنور؟

ولكن مَن عساهُ يخبرها بذلك فلا أحد يعلم موت يوسف سوى هي وأخته وذلك الشخص الذي إتصل بها وهو لا علاقة تربطه بنور، إذاً شيءٌ آخر حدث معها.. إتصلت بالمستشفى وسألت عن إذا كانت الطبيبة نور قد غادرته فأخبروها أنها غادرت منذ الصباح، بدأ عقلها يهزي مرة أخرى، هل ذهبت لمنزله؟ ودون تفكير نهضت من مكانها، بدلت ثيابها ونزلت.

*****

" عامر "

لقد كان يوماً ثقيلاً، أحد أسوأ الأيام التي تمر على عامر، ذلك الشاب العشريني الذي اعتاد أن يقضي معظم أوقاته

متجولاً بين الأرصفة والعمارات النصف مكتملة، باحثاً عمن يفترش الأرض ويلتحف السماء، يعتبره أطفال الشوارع أباً لهم، ينتظرونه مساء كل ليلٍ فيأتيهم مُحملاً بالطعام والحلويات، لا يدرون من أين يحضرهم وحينما يسألونه يقول لهم أنها من عند الله.. في صباح هذا اليوم جاءته سيدة عجوز تطلب منها الذهاب معها لمنزلها، حيث وجد هناك ثلاث أطفال قد ضاقت أجسادهم بهم، التصقت جلودهم على عظامهم وأُرهِقت أجسادهم النحيلة، يتضورون جوعاً ولا تملك والدتهم ما تُشبِع به جوعهم، الأبرياء هم مَن يعانون من قسوة الأوطان، يدفعون ثمن أخطاء ارتكبها بعض فاقدي

الضمير ممن يعيشون على حق غيرهم، أولئك الذين يقبعون على رأس السلطة فيُعيثون في الأرض فساداً عوضاً عن الركض خلف مصالح الناس وتسهيل سُبل عيشهم، كم مثل هذه المرأة تحتاجُ لعامر وكم عامر يحتاج الوطن؟

خرج من عندهم وقد تملكه الحزن والأسى، أطفال صغار ناعمة أظافرهم يشكون الجوع، والدة لا حيلة لها ملؤها الأسى وضاقت بها الحال، شعر برغبة جارفة في الصراخ:

-" مالكم كيف تحكمون "؟

عاد بعد وقتٍ ليس طويلاً وقد أحضر معه ما يكفي هذه الوالدة وأطفالها

لسبعة أيام من الطعام، و بعض الملابس وأشياء أخرى من مستلزمات الأطفال.

حينما أوى إلى فراشه تحت سقف منزله، وردته مكالمة من رقم دولي، كان أخاه عمار.. بدأت المكالمة بالأسئلة المعتادة، صوت عمار تكسوه اللهفة والاشتياق والحنين، وصوت عامر يملؤه الانكسار والحزن والأنين.. يسأله عمار:

-هل كل شيء بخير؟ صوتك لا يعجبني!

-لماذا الأبرياء هم مَن يدفعون الثمن دائماً، ألا يمكن أن تدور الساقية على مَن ارتكب الجُرم؟

-يمهل ولا يهمل يا صديقي، ولكل جزاءه، الأبرياء ينالون الثواب على صبرهم والظالمون لقاع جهنم، الأوطان

كالبشر تماماً، لديها وجهان، أحدهما لطيف جميل والآخر قاسي وكان قدرنا أن نُجابه قسوتها ونصبر، لا يوجد أقسى من أن ينعتك أبناء بلدك بالخائن.!

-الحال هنا يضيق يوماً بعد يوم..

-قلتُ لك أكثر من مرة، تعال إلى هنا وسيرتاح رأسك.

-أنت لا تعلم شيئاً، دعك مني، كيف حالك هناك؟

-كل شيء على ما يرام، لقد نلتُ تكريماً من الحكومة قبل ثلاثة أيام، إتصلتُ بك لأخبرك ولكن هاتفك كان مغلقاً.

-كنت مشغولاً بعض الشيء، مبارك!

-بارك الله فيك، كيف حال العمل هناك؟ هل الأمور جيدة؟

-نعم نعم، إيهاب يقوم بكل شيء، إنه مدير جيد.

استمرت المهاتفة بين الأخوين لساعات حتى غلب عامر النعاس والتعب فنام وسط المكالمة.

عامر يمتلك محلاً لبيع الأثاث المنزلي ولكنه يدع صديقه إيهاب يقوم بكل الأعمال، وينصرف هو لأعماله الخاصة، لديه أخ وحيد وهو عمار يصغره بثلاث سنوات، هاجر عمار حينما كان عمره تسع عشرة سنة لإحدى دول العالم الغربي، فاراً من جحيم الوطن وسوءه، استغل مهارته في لعب كرة القدم حتى وصل لأعلى المستويات، عرضوا عليه الجنسية فوافق وأصبح يمثل منتخب

المنـــافي، أصـــبح المنفـــى وطنـــه ووطنـــه منفـــى.. حينمـــا تلقـــى دعـــوة مـــن المنتخـــب الـــوطني للإنضـــمام لتدريباتـــه وتمثيـــل منتخـــب بـــلاده، لـــم يقـــم بـــالرد عليهـــا ولـــم يحضـــر، حينهـــا وصـــفه الجمهـــور بالخـــائن، آلمتـــه تلـــك الكلمـــة كثيـــراً، هـــذا المنتخـــب الـــذي يمثلـــه الآن آواهُ وأكرمـــه حينمـــا لفظتـــه بـــلاده الأم، اهـــتمَّ بـــه و رعـــاهُ حينمـــا تخلـــى عنـــه وطنـــه، أيكـــون تمثيلـــه لـــه واللعـــب لأجلـــه خيانـــة!؟ بلـــى، هـــذه قمـــة الوفـــاء، ومـــا جـــزاء الاحســـان الا الاحســـان، انـــه رد للجميـــل فقـــط.. مـــاذا قـــدمت لـــه بـــلاده ليمثلهـــا؟ لا شـــيء غيـــر التشـــرد والفقـــر والجـــوع.. كـــل المهنيـــين فـــي الخـــارج، يتمنـــى أحـــدهم لـــو يعـــود ويســـتنزف طاقاتـــه

على وطنه ولكن الوطن نفسه غير مرحب بعودتهم. الوطن هو مَن خان نفسه حينما ارتضى الظلم والاستبداد، وليسوا هؤلاء.

******

" الدكتورة نور "

ركضت نور لمكتبها وأخذت حقيبة يدها وخرجت من المستشفى، توجهت لأقصى جنوب المدينة لأنها تعلم أن كل الاسعافات التي تأتي من قرى الجنوب تذهب لأقرب مستشفى في ذلك الاتجاه، حينما وصلت وسألت عنهم علِمت أنهم لم يأتوا بعد، فبقيت أمام المدخل وقد تملكها الخوف والقلق، بعد حينٍ رأت سيارة عمها تقترب من مدخل

المستشفى، ركضت للداخل وأحضرت نقالتين وساعدها بعض المسعفين، أدخلوا أعمامها لغرف الطواريء. بقيت خارج الغرفة تذهب وتجيء دون هوادة، حتى الآن لا تعلم ما حدث بالضبط ولكنها توقنُ أن قرية ودحامد لها يد في الأمر.

أخبرها الطبيب:

" أنهم تعرضوا لبعض الكسور في أطرافهم وقد لا يتمكنون من المشي أبداً، الوقت كفيل بكشف مدى عافيتهم، قد يتمكنون من العودة لطبيعتهم وقد لا يحدث، الأمر متروك للأيام القادمة ".

بعد هذا ذهبت لابن عمها يعقوب والذي كان يجلس على احد المقاعد التي وُجدت

خارج الغرف للانتظار، سألته عما حدث:

-لقد هوجموا من بعض أبناء قرية ودحامد.

-أخبرني بالأمر من اوله، هل وجدوا أنفسهم لا شغل لهم فقرروا مهاجمتهم؟

-نورا، لا تبدئين الآن

-لا أبدأ ماذا؟ أنا أعلم أن هذا الهجوم كان رد لفعل سبقه، ماذا فعلتم هذه المرة، هل قتلتم شخصاً آخر؟ ولماذا لم تحميكم القرية؟ لابد أنهم هم مَن بدؤوا.

-لا تنقصني سخافتك هذه.. والأفضل أن تحددي موقعك، في أي جانب تقفين.

قال كلماته هذه وهو يبتعد عنها ناحية بوابة المستشفى الخارجية.

" يونس ودحامد "

بعد أن حكى عمر لخاله يونس ما حدث في القرية في الأربعة أيام الأخيرة، ذهبوا معاً لجناح الطواريء والاصابات وهناك وجد عمه يونس وبعض الأشخاص من قريته، تبادل التحية مع الجالسين ودخل مباشرة لوالده، كان يغطُ في نوم عميق، جلس بجانبه على الفراش، ظل ينظر إليه بهدوء وحسرة، اعتراه الحزن والغضب وهو يرى والده ممدداً أمامه وتغزو الأسلاك والأجهزة جسده، العداوة لا تأتي إلا بالخسائر والمنتصر فيها خاسر، والده ينام هنا وأولئك ليسوا بوضع أفضل منه أيضاً، إذاً مَن الذي ربح هذه الحرب؟ رغم هذا

فقد إتخذ وعداً مع نفسه أنه لن يدخر أحداً إذا ما أصاب والده سوء، في هذه اللحظات انتبه ليد والده وهي تعانق يده، مسح دموعه وسأله:

-هل أنت بخير؟ بماذا تشعر؟

-لا شيء، إنني بخير الآن، أخبرني كيف أنت؟

-كما ترى، أنا بخير الحمدلله.. هل أنشد الطبيب؟

-لالا، لا حاجة له، انني بخير يا ولدي!

-الحمدلله!

-أريدك أن تعدني، أن ينتهي هذا الأمر هنا، إن حدث لي شيء أو لم يحدث.

-أبي....

-هل تعدني؟

ابتلع غصة وجع تكومت في حلقه وقال بمرارة:

-أعدك!

حينها عاد العم حامد لغيبوبته، كأنه شعر بوجود ابنه يونس وأفكاره فاستأذن غيبوبته لينهي هذا الجدل في رأس ابنه ويعود، أخذ منه عهداً بألا يمضي في سلسلة الثأر هذه ومن ثم غفى مجدداً.

أتت الممرضة واستأذنت يونس لتقوم ببعض المراجعات والفحوصات وتتطمئن على وضع العم حامد، نهض يونس من جانبه وخرج لعمه وبقية ذويه أمام الغرفة،كان قد نسيَ أمر سُهى تماماً فبقيَ مع والده طول اليوم.

****

" الدكتورة ريم "

جاءت للمستشفى لتبحث عن صديقتها نور، فقد أقلقتها بإختفائها هذا، أين عساها تكون وهي التي لا تخرج لمكان دون أن تُخبرها، هل يمكن أن يكون قد حدث طارئاً في القرية؟ ريم بالتأكيد لم تنسى تلك الإجازة التي قضتها مع نور في قريتها وكيف أنها كانت مشحونة بالعداء والمصاب، هذا التفسير الوحيد لإختفاء نور بتلك الطريقة، شيء ما حدث في القرية، أو قد يكون أحد أقرباءها توفيَ.

مسكت رأسها بيديها علها تستطيع السيطرة على تلك الأفكار المُقلِقة، يدخل الإنسان بدوامة من الأفكار ويبدأ عقله

بالإستنتاجات حينما يفقد التواصل مع شخص يهمه، الكثير من الأفكار المتداخلة كانت تضج برأس ريم، وأهم سؤال كان يراودها في تلك الحالة كيف هي الآن وأين ؟

أخرجت هاتفها وإتصلت بها مرة أخرى،مغلقاً كما وجدته آخر مرة قبل ساعة، الوقت يمضي نحو الثانية عشر صباحاً، وبينما هي تقف بجانب الاستقبال جاءت ممرضة تسأل موظفة الاستقبال عن الشخص الذي كان يرافق تلك الطفلة في الغرفة 201.. لقد سمح لهم الطبيب بالخروج كما أن حالة الطفلة جيدة، ولكن مرافقها مختفي منذ ساعات وقد أفاقت الطفلة الآن وتسأل عنه،

ذهبت ريم بأفكارها نحو هذه الطفلة، لا تعلم لماذا ظنت أنها تشبهها، ربما لأنها أيضاً عاشت مثل هذا الموقف في طفولتها، حينما إستيقظت ذات يوم مع أختها ولم يجِدنَ والدهن، علموا بعد سنتين أنه توفي بحادث سير وقد ترك مبلغاً طائلاً آلَ إليهن بعد موته.

في إحدى المنتزهات بالمدينة، مجموعة من الشباب جلسوا على بساط في الأرض، أمامهم أكواب قهوة بعضها ممتلىء وبعضها نصف فارغ، يتحدثون عن شتى الأشياء ومن ضمنها الثأرِ والعداوات التي تنشأ بين شخصين أو حتى طفلين وتتسبب بسفك دماء قبيلة بأكملها أو قرية أو مجتمع بعينه. بين

الحضور كان هناك شاب يقترب من الثلاثين من عمره، تبدو شخصيته قوية مكسوة بهيبة وجلال، لا يتحدث كثيراً وحينما يتحدث يستمع اليه الآخرون بتمعُن، بعد أن صمَتَ جميع الحاضرين وثبتوا أعينهم عليه إنتبه من شروده و وجَّه سؤالاً لهم:

-هل قُلتم شيئاً؟

قال أحدهم:

-كنا نسأل عن رأيك فيما قالته ملاذ؟

-وماذا قالت؟

قالت إحدى الفتيات:

-يبدو أن محمد لم يكن معنا، أين ذهبت؟

-إنني هنا، شردتُ قليلاً.. أعتذر.

-قالت فتاة أخرى:

-مـــلاذ تقـــول أن هنـــاك جريمتـــا قتـــل فـــي إحـــدى القـــرى جنـــوب المدينـــة، بدايـــة الأمـــر كـــان نقاشـــاً عاديـــاً، وحتـــى هـــذه اللحظـــة لـــم يـــتمكن فـــاعلي الخيـــر مـــن جمـــع الطـــرفين حول مائدة الصُلح والعفو.

قـــال محمـــد: هل هـــذه الأحـــداث نفســـها التـــي جرت في قريتي ودحامد و ودالبخيت؟

أجابـــت مـــلاذ وهـــي فتـــاة فـــي الرابـــع والعشـــرين، جميلـــة للحـــد الـــذي يعجـــز عنـــه الوصف:

-هل تعرفهم؟

-سـمعتُ بهـذا الأمـر وهـو مـا كنـت أفكـر فيـه قبـــل قليـــل، بـــالأمس حصـــل صِـــدام بـــين الطـــرفين، لـــم تكـــن هنالـــك وفيـــات ولكـــن

الإصابات خطيرة ومتفاوتة وقد أُسعِفوا ثلاثة أشخاص إلى هنا!

-ما الذي تقترحه؟ هل بإمكاننا فعل شيء؟

صمتَ الجميع وعمَ السكون، ينظرون جميعهم نحو محمد وينتظرون رده على ذلك السؤال، قد قاموا قبل هذا اليوم بالكثير من عمليات الصُلح التي فشل فيها معظم الناس، يملكون طريقة عظيمة في الإقناع والمخاطبة تجعل المستمع إليهم مشدوداً إلى حديثهم، يُهيئون داخل المرء سُبل الإنصات والقبول لديه حتى يُدخلون رأيهم وقناعاتهم إلى صميم فؤاده، بعد صمتٍ

دام طويلاً بدا فيه محمد أنه يفكر في شيء ما، قال:

-هناك قريتان، الأولى ودالبخيت، وهم الذين قتلوا شخصين من القرية الاخرى، والقرية الثانية هي ودحامد.. سأُسمي الأولى بالطرف الأول..

في الطرف الأول لدينا فتاة، يقولون أن جدها كان ذو حكمة بالغة وكان القوم يحتكمون لرأيه وقد أخذت منه هذه الصفات، حكيمة، قوية، سديدة الفكر والرأي، ولكن المشكلة تكمن في أن أهلها لا يستمعون لها كثيرة، وهو ما نعانيه في معظم مجتمعاتنا التي تُخرس صوت المرأة.. ما ضيرنا إن كانت أمرأة قد توصلت بعقلها ما لم يستطِع الرجل

التوصل إليه؟ نحن نحتاج حلاً وقد وجدته إمرأة، هل نتركه لمجرد أنها إمرأة؟

لمعان وبريق وشيء من الفخر والإعتزاز بدا واضحاً على أعيُن الفتيات اللائي يجلسن هناك وهن يستمعن لمحمد وكلماته، لديهن مَن يدافع عنهن هنا، ويشعرن بالفخر بتلك الفتاة التي يتحدث عنها، يواصل محمد:

-تلك الفتاة تعمل طبيبة هنا، يُقال أنها جلبت أبناء عمها بيديها وسلمتهم للعدالة وقالت لهم هؤلاء قتلوا شخصين.. ووقفت أمام أهلها حينما أرادوا الخروج لملاقاة القرية الأخرى حينما هجمت عليهم..

-هل تريدهم أن يموتون داخل بيوتهم؟

يسأل أحد الأشخاص.. لم يجيبه محمد وواصل بهدوءه المعتاد:

-في الطرف الثاني، لدينا يونس ودحامد، يتساوى مع تلك الفتاة في الحكمة والحلم، ولكن ما يفرقه عنها أن أهله يحترمونه ويفعلون ما يقوله...

قاطعته فتاة بصوت ملأته المرارة والغيظ:

-هذا لأنه رجل!

رمقها محمد بنظراتٍ ثم واصل:

-قتلوا إبن عمه في اليوم الأول ومنع نفسه وأهله من الهجوم عليهم، وبينما كان والده وعمه في جلسة صُلح في قرية ثالثة محايدة، قُتِل أخ يونس، وهنا

غلب عليه الحزن والغضب ولكنه لم يتحرك قط، وحين غفلة منه ثار الأهالي الغاضبون وهجموا على الطرف الأول، علِم يونس بالأمر فحاول اللحاق بهم، في هذه الأثناء وصلت الأخبار للطرف الأول أن يونس يهجم عليهم مع أهله.

تلك الفتاة من الطرف الأول لم تكن تعلم هل فعلاً يونس معهم أم لا ولكنها كانت تُمني نفسها بألا يكون معهم وأن يكن موقفه مثل موقفها،إلتفت للشخص الذي سأله قبل قليل وأكمل:

-ولذلك قررت أن تمنع أهلها عن ملاقاتهم وتتمنى أن يستطيع يونس أو شخص آخر أن يُثني أهله عن رأيهم ويُعيدهم.. وفي حال لم يعودوا ووجدوا

أن أهلها لم يخرجوا لهم فهي متأكدة أنهم لن يهاجموهم في منازلهم فهذه ليست من عادات أهل الريف وليست عادة تلك القرية تحديداً.

في هذا الوقت لحق يونس بأهله وأوقفهم ولكن سهم من الطرف الأول أصابه فعادوا به إلى القرية، بعد هذا جاء يونس الى المدينة وعادت تلك الفتاة لعملها هنا، ثم إشتعلت الأجواء بين الطرفان هناك مرة أخرى ونتيجتها تلك الإصابات التي حدثتكم عنها قبل قليل.

****

" يونس ودحامد "

ظل أمام حجرة والده طوال الليل حتى أشرقت الشمس، تحدث مع عمه عن ما يجب فعله لإنهاء هذا الأمر، لم يجد عند عمه أي رأي فقد كان كل فكره مشغولاً بأخيهِ، قال يونس:

-سأذهب بنفسي لقرية ودالبخيت وأرى نهاية هذا الأمر.

-هل جننت؟ هل يذهب شخص بنفسه إلى الموت؟

-لابُد مما لا بَدَ منه!

-هذا ليس الحل المناسب، اترك والدك يقوم بخير وعافية وبعدها نبحث في الأمر.

-هؤلاء قوم شر، لن يجلسوا في حالهم وينتظرون عودة والدي.. ولا تنسى أنه لديهم شخصان مصابان أيضاً.

-لو أرادوا فعل شيء لِما تركوا أبناءنا يضربون أهلهم أمام عينيهم ووسط دارهم!

-هؤلاء قلة منهم، فلنحسب أنكم لم تجدوا أولئك الذين يتطاير الشرر من أعينهم.. أبناء أحد الرجلان الذين قمتم بضربهم هم مَن قتلوا إبنك وأخي!

-أعلم كل هذا يا يونس، ولكن هذا ليس الوقت ولا المكان المناسب لمناقشة مثل هذه الأمور.

-هل تعتقد أنني لا أهتم لصحة والدي؟ كل ما في الأمر أنني أخشى حين فترة

جلوسنا هنا أن يقومون هم بفعل شيء غادر.

-لن يحدث شيء، ثق بالله!

لم يجيبه يونس فسأله عمه:

-لم تخبرني، ماذا كنت تفعل هنا فقد أخبرتني أنك تصادفت مع عمر في هذا المستشفى، هل تشكو من شيء؟

في هذه الأثناء فقط تذكر يونس سُهى، إنتفض من مكانه و ركض إلى الطابق الأعلى تاركاً عمه في حيرته.

وصل إلى حجرة سُهى فوجدها خالية، نزل إلى الاستقبال وسألهم عن الطفلة التي كانت تتواحد في الغرفة 201

أجابه موظف الاستقبال:

-انتظر قليلاً لأرى، فقد إستلمتُ دوامي قبل قليل

ذهبت عينا الرجل تتفحصان الحاسوب أمامه، عاد وأخبره أن الفتاة لم تسجل خروجاً من المستشفى.

-كيف هذا وهي ليست بحجرتها ولا يوجد شخص يمكن أن تذهب معه.. أرجوك تأكد مرة أخرى.

-إنني متأكد، الفتاة لم تخرج من المستشفى، إلا إذا خرجت دون علمنا أو شخص أخذها دون توقيع الخروج.

هنا تاهت أفكار يونس وبدأ عقله يروح ويجيء بالكثير من الأفكار.. خرج من المستشفى إلى منزل يوسف فقد فكر أنها ربما قد تكون ذهبت إلى هناك.

" عامر "

كـــان متواجـــداً بمكـــان عملـــه يبحـــث مـــع إيهـــاب ســـير العمـــل ومـــا يحتاجونـــه، أخبـــره إيهـــاب أنهـــم تســـلموا الشـــحنة الجديـــدة مـــن البضاعة وكل شيء يجري كما يرام..

كـــان المحـــل مكتظـــاً بالأثـــاث المنزلـــي الفـــاخر ومكتظـــاً بالزبـــائن الـــذين يتجولـــون بـــين الأثاثـــات، يُفاضـــلون بـــين هـــذا و ذاك، يختـــارون طقـــم الجلـــوس هـــذا ويشـــيرون نحـــو آخـــر، دواليـــب وطـــاولات خشـــبية فخمـــة، أسِّـــرَة وأطقـــم جلـــوس وغـــرف كاملة.

بـــدأ عـــامر هـــذا العمـــل قبـــل خمـــس ســـنوات حينمـــا كـــان عمـــره عشـــرون ســـنة، كـــان قبلـــه يعمـــل مـــع شـــخصٍ فـــي ورشـــة نِجـــارة،

ثم بدأ يشتري منه الأثاث ويبيعه، شيئاً فشيئاً حتى كون لنفسه عملاً خاصاً به.. وقد وفقه الله لكثرة ما يمنحه بيمينه دون أن تدري عنه يساره، الصدقات وكفالة الأيتام تُزيد الرزق في الدنيا وترفع رصيد الآخرة. في سنوات بسيطة لم يلحظها عامر كان إسمه يتردد بين أسماء أثرياء المدينة، ولا أحد يعلم أن عامر هذا هو نفسه الذي يتجول بين الطرقات بملابس رَثة ويجالس الأطفال هناك ويضحك معهم ويقاسمهم أحزانهم وظروفهم. بدأ قبل سنة بجمع الأطفال الراغبين في التعليم وتسجيلهم في المدارس، وأولئك الذين يريدون العمل أنشأ لهم مشاريعاً صغيرة تُناسب

أعمـــــارهم وتـــــركهم يكســـــبون رزقهـــــم بجهـــدهم. بالحـــب والتســـامح وتقبُـــلِ الآخـــر تُبنى الأوطان.

بينمـــا هـــم منشـــغلون بـــدفتر الحســـابات رن هاتف إيهاب فإستاذن للرد:

-أين هذه القرية؟

-هـــل درســـت كـــل الاحتمـــالات؟ أنـــتم دائمـــاً تزجـــون بأنفســـكم فـــي أمـــاكن لا تعلمـــون عنها شيئاً.

-إننـــي أخـــاف عليـــك فقـــط، ســـتقتلني أمـــي إن حدث شيء لك، تعلم أنك مدللها!

-حســـناً حســـناً، هـــل ينقصـــكم شـــيء او تحتاجون شيئاً؟

-حسناً، لك ذلك!

-كن بخير!

أغلق الهاتف وتحدث إلى عامر:

-أين كنا؟

سأله عامر بدوره:

-هل هذا محمد أخوك؟

-نعم.

-كيف حاله؟ لم أراه لفترة من الوقت!

-يا رجل، بالكاد تراني أنا، كيف سترى محمد، هو بخير، مشغول بالعمل في تلك الجمعية!

-أعلم يا صديقي، إلتمِس لي العذر، سأحاول أن أكون متوفراً

شدت كلمة جمعية إنتباه عامر فهو كثير ما يميل لأعمال الجمعيات الخيرية ويهتم بها، سأل إيهاب:

-أي جمعية؟

-لديه جمعية أنشأها مع أصدقاءه في الجامعة، يهتمون بقضايا المجتمع وتلك السوالب التي أخذت تنتشر بين الناس.

-هذا شيء جميل يستحق الدعم والمساندة.

-فعلاً.

الى هنا إنتهى الحديث وعادوا إلى حساباتهم ومراجعتهم لسير العمل.

" ريم "

حتى هذا الوقت لم تظهر نور ولم تجد هي خبراً منها، الآن مضت أربعٌ وعشرون ساعة من إختفاءها هذا، هذا الأمر ليس مطمئناً، إنتبهت للطفلة التي تستلقي بجانبها على الفراش، وما أن وقعت عيناها عليها حتى بدأت قطرات

الدمع تهطل من عينيها، لقد رحل يوسف وترك سُهى ونور لوحدتهم، هذه سُهى لم تجد أحداً معها في مصيبتها، ونور لم تعلم بالأمر بعد، و ربما علِمت به..

في مساء الأمس وجدت ريم سُهى لوحدها في إحدى غرف المستشفى، علمت من الممرضة أنها أتت بصحبة رجل ولكنه مختفي منذ فترة.. كان الوقت منتصف الليل وقد أذِن لها الطبيب بالخروج، أحضرتها معها إلى المنزل وهي تسُب وتلعن ذلك الرجل الذي تركها لوحدها وهي في هذه الحالة، علِمت أنه ذلك الشخص الذي اتصل بها ووجدته في بيت يوسف حينما ذهبت له.. كيف سمحت له نفسه بترك طفلة كهذه في

مثل هكذا ظروف، ظلت تلعنه حتى كرهته.

عادت بأفكارها إلى نور وكيف ستكون ردة فعلها، إذا كانت سُهى قد دخلت في حالة صدمة وهي التي كانت تتابع حالة أخيها تتدهور في لحظاته الأخيرة حتى فاضت روحه، ماذا ستفعل نور حينما تسمع بالأمر؟ " لقد توفي يوسف البارحة ولم يشأ إخبارك واتصل بي "؟ هي تعلم أن صديقتها تمتلك شخصية قوية وحليمة ولكنها هشة جداً عند الفقد، لا أحد يحتمل الفقد، جميعنا ننهار حينما نخسر مَن نُحب، كيف إذا رحل عن الدنيا؟ حتى الجبال لا تصمد أمام

هـذه الإمتحانـات! ظلـت تتصـل بهـا وظـل هاتفها مغلقاً!

*****

" نورا بت مريم "

لـم تكـن نـورا بأفضـل حالاتهـا حينمـا أخبـرهم الطبيـب أن أحـد أعمامهـا قـد سـاءت حالتـه ونقلـوه لغرفـة الإنعـاش، كـان عمهـا عيسـى، عرضـت بطاقتهـا الطبيـة علـى الطبيـب ودخلـت علـى عمهـا، وجدتـه فـي حالـة يُرثـى لهـا، يسـتلقي علـى فراشـه خـائر القـوى شـاحب الوجـه، مـدَ يـده لهـا فتلقتهـا يـداها الصـغيرتين ودموعهـا تبلـل خـدها، تـوفي والـدها منـذ زمـن فكـان عمهـا هـذا مـع عمهـا ابـراهيم هـم أبويهـا، لـن تحتمـل أن تفقـد أحـدهما، بعـد قليـل ذهـب

عمها في نومٍ وهدوء مريب ولولا أن الأجهزة أمامها تطمئنها بإستقرار نبضه لظنت أنه مات.

خرجت من الغرفة وذهبت لغرفة عمها إبراهيم، وجدته بحالة أفضل مما كان عليها ليلة أمس، جلست معه وتبادلا بعض الأحاديث، قالت نورا:

-الى متى هذا الأمر يا عمي؟

-سينتهي يا إبنتي، دعينا نخرج من هنا فقط.. أعدك بإنهاءه.

-ماذا ستفعل؟

-لا أعلم، ولكن سأضع حداً لهذا العداء وإن تطلب الأمر سأتوسلهم، عندما جاؤوا أمام المنزل، لم أخشى على روحي بقدر ما خشيت على أبنائي، ماذا

سيحدث لهم إن أصابني شيء؟ تعلمين أن الزين والعوض ليسوا بالأشخاص الذين يُعتمَد عليهم. وهم سبب كل هذه المصائب!

-إن كنت تعلم أن أبناؤك هم مَن أخطئوا أولاً، لماذا لم تجلس إلى الصُلح قبل أن يأتوا ويهاجموكم؟

-لقد تصالحنا، هل نسيتِ، لكن بسبب عمك خرجت الامور عن مسارها وفي اليوم التالي ذهب وتعدى على حامد مصطفى، وحينما وجدتُهم أمام منزلي يريدون أخي، لم أجد بَداً من أن أقف معه؛ فهو أخي في نهاية الأمر، وأقسم لك أنني دخلتُ مدافعاً لا مهاجماً والدليل

على هذا أنهم ذهبوا كما أتوا، دون أن يُصاب أحدهم.

-حسناً، خذ راحتك الآن وعندما نعود للقرية نرى ماذا سنفعل.

-أنتِ لن تعودين، أبقي هنا وتابعي عملك، دعي هذا الأمر لي..

-لن أبقى يا عمي، أنت تعلم..

قاطعها محتجاً بصوتٍ آمِر:

-لن تذهبين يا نورا، لقد منعناكِ من عملك بما فيه الكفاية، إلتفتي لحياتك!

-ولكنكم أهل...

-لقد قلتُ ما عندي، ولا أظنك ستتخطين كلمتي.!

قالت ورأسها في الأرض:

-حاشا أن أتخطى كلمتك!

خرجت من عنده وقد تذكرت صديقتها ريم ولماذا لم تتصل بها لتُطمئنها على أختها، تفقدت هاتفها فوجدته مغلقاً، تذكرت أنها لم تشحنه منذ أيام، عادت إلى غرفة عمها ووضعته على الشاحن ثم خرجت.

*****

" يونس "

وصل إلى منزل يوسف ولم يجد سُهى هناك، ذهب للبيت المجاور وعاد بُخفي حُنين أيضاً! هل هكذا تحافظ على الوصية والأمانة يا يونس؟ طفلة يتيمة وحيدة في هذه الحياة تركها أخاها بين يديك فتفقدها بعد ساعات من وفاته؟

ظل يعاتب نفسه بأسى وحزنٍ وهو يلتمس طريق العودة للمستشفى، عاد وسأل عنها مرة أخرى ولم يجد أثراً لها، إقتنع أنها خرجت من المستشفى لوحدها، ولكن أين عساها تكون؟

-يونس..

سمِع صوت يناديه..

إلتفت ناحية المدخل فوجد إبن أخته عمر وملامحه كساها الإنكسار والحزن.. قال عمر بصوتٍ مكسور:

-البركة في عمرك!

وقف يونس جامداً في مكانه، أسند نفسه بمكتب الاستقبال وهو لم يستوعب بعد كلمات عمر!

" محمد "

إجتمع محمد بكل مَن معه في تلك الجمعية، وكانوا قد قرروا أن يذهبوا الى القريتين حين خروج المصابون في المستشفى وعودتهم.. سأله صديقه مجتبى:

-من أين تعلم بكل هذه المعلومات عن القريتين.

أجابه محمد مداعباً:

-لدينا مصادر تعلمونها جيداً..!

-بجدية..

-صديقي متزوج من إحدى القريتين.

-هذا يعني أن زوجة صديقك هي مراسلتنا..

-شيء من هذا القبيل.

-حسـناً، ومـاذا قـال لـك إيهـاب، هـل وافـق أن يمنحنا سيارته؟

-نعم، متى خذلنا إيهاب؟

-لـم يفعـل والله، كـان دائمـاً عنـد الحاجـة، جزاه الله خيراً.

عنـدما كـانوا يتحـدثون عـن إيهـاب اقتربـت ملاذ منهم فقالت ضاحكة:

-هل تتحدثون عن حبيبي من خلفي؟

أجابها مجتبى:

-ومـاذا فـي ذلـك، هـل نحتـاج إذنـك فـي اختيار مواضيع حديثنا؟

-ولكني أغار..!

-منا؟

-حتـى مـن الهـواء البـارد الـذي يغشـاه..

إنفجـر محمـد ومجتبـى بالضـحك، مـلاذ هـي

خطيبة إيهاب، كان قد خطبها بعد أن رآها إحدى المرات في زياراته للجامعة التي يدرس بها محمد أخوه، سأل عنها أخيه وذهبوا بعدها بإسبوع لخُطبتها!

إقترحت ملاذ أن يذهبوا للمستشفى لزيارة المصابين، أيدها مجتبى ولكن محمد رفض الفكرة، قال:

-الأفضل أن نذهب لهم في عقر دارهم بعدما يخرجون.

*****

" الدكتورة ريم "

لم تشأ أن تترك سهى لوحدها في المنزل، فقررت أخذها لأختها لتبقى معها ومن هناك ذهبت للمستشفى، كانت سهى قد عادت تتحدث مرة أخرى ولكن تقضي

معظم أوقاتها بين دموعها، حينما كانت ريم تأخذها لمنزل أختها سألتها في الطريق:

-مَن ذلك الرجل الذي كان معك بالأمس؟

-اسمه يونس، أين هو؟

-ذهب لمنزله، قال أنه سيأتي، لابد أن شيئاً طارئاً حدث معه.

صمتت قليلاً وعندما لم يأتيها صوت سهى أردفت قائلة:

-ولكن لا تقلقي، ستبقين مع أختي وسأمر عليكِ كل حين، أختي لديها أطفال في عمرك، يمكنك اللعب معهم!

-متى سيأتي يونس؟

ريم نفسها لا تعلم متى سيأتي، وإن أتى كيف سيجدها، هو لا يعلم أصلاً أين هي،

وإن كان يرغب بالعودة لماذا تركها باديء الأمر؟ تباً للرجال أمثاله!

لم تجب، وقد تناست أن سهى طرحت عليها سؤالاً، قالت بشيء خارج السياق:

-ما رأيك أن أسجل لك في المدرسة؟ تذهبين مع أبناء أختي وتعودين معهم للمنزل؟

-يونس لن يأتي صحيح؟

عادت مرة أخرى لذكراه، ماذا تفعل معها، ريم نفسها لا تملك أجوبة على أسئلتها، هل تخبرها أنه تركها؟ ولكن يبدو أن سهى فهمت الأمر لوحدها فدست رأسها بين يديها وعادت للبكاء مرة أخرى، بحرقةٍ أكبر وحزن أكثر هذه

المرة، لقد خذلها يونس وخذل أخيها في أول يومٍ.

عاد هذا الشريط الى ذاكرة ريم وكانت قد عاشته قبل قليل، لم تنتبه لنفسها ولا لسائق الأُجرة الذي نبَّهها بوصولهم للمستشفى حتى لوح بيده أمام عينيها، قالت معتذرة:

-انا آسفة، لم ألحظ أننا وصلنا!

-لا بأس!

دفعت له مستحقاته ودخلت المستشفى,أول شيء فعلته هي أنها سألت عن الدكتورة، أخبروها أنها لم تأتي اليوم وحينما أخرجت هاتفها للاتصال بها، إتصلت نور بها.. ردت

على الهاتف بلهفة وقالت بصوت مليء بالقلق والريبة:

-أين أنتِ يا بنت؟ مختفية منذ الأمس!

-أنا آسفة جداً، لم ألاحظ أن هاتفي نفذ شحنه الا قبل قليل، قد إستغربت لِمَ لم تتصلين بي.

-ولم تأتي للمنزل أيضاً، ماذا يحدث يا نور، هل أنتِ بخير؟

-لستُ بخير يا ريم، كل مصائب الدنيا في رأسي، لا شيء في مكانه أبداً..

لاحظت ريم أن صديقتها توشك على البكاء، فسألتها وقد ازداد قلقها:

-أين أنتِ، سآتي إليكِ.!

-لا داعي لمجيئك، إذهبي للمستشفى وسأمر عليك خلال هذا اليوم.

-ولكنك لست بحال جيدة، ولم تخبريني ماذا يحدث معك؟

-عندما نلتقي سنتحدث. أردتُ فقط أن أطمئن عليك وعلى أختك، هل أصبحت بحال جيدة؟

-أختي؟

-نعم، ألم تقولي بالأمس أنها مريضة وذهبتِ إليها؟

-نعم، نعم.. هي بخير.

-ريم، لا أظنك تكذبين علي!

ترددت ريم في إخبارها بحقيقة الأمر وأن يوسف توفي ولكن صرفت الفكرة من رأسها، نور تبدو ليست بحال تسمح لها بتلقي مثل هذه الأخبار..

-ريم..

-أنا معك

-لا لست معي، هل كل شيء بخير؟

-نعم، لا تشغلي بالك، إشتقتك فقط.

-وأنا أيضاً، أريد أن أسألك، هل اتصل بك يوسف؟ انني أجد هاتفه مغلقاً، اليوم ميعاد غسيل الكلى، إتصلي بي حينما يأتي.

لم تستطع ريم حبس دموعها فأطلقت العنان لها، وحرصت ألا تلاحظ نور ذلك فقالت لها:

-حسناً، سأخبرك..!

أغلقت الخط وظلت تبكي حتى صعدت لغرفتها وأغلقت الباب خلفها، إرتمت على مقعدها وواصلت ما بدأته من بكاء.

" يونس ودحامد "

بإمكـــان المـــرء تحمـــل كـــل المصـــاب ولكـــن لـــن يمكنـــه تحمـــل خســـارة أحـــد والديـــه، الأمـــر لـــيس بتلـــك الســـهولة، فهـــا هـــو يـــونس ودحامـــد بنفســـه يبـــدو منهـــاراً فاقـــداً لنفســـه، هـــو الـــذي تعتـــزُ قريتـــه بـــه وبشـــموخه وقوتـــه.. الآن يعجـــزُ عـــن حمـــل نفســـه، يســـتندُ علـــى الجـــدار دون وعـــي أو أدنـــى إدراك بمـــا يحـــدث حولـــه، عينـــاهُ جافـــة فلـــم يبكي قط.

ولكـــن أنـــين قلبـــه كـــان فـــي أوَجِـــهِ، أمـــراً عاديـــاً أن يبكـــي المـــرء بعينـــه، مـــا يـــؤلم فعـــلاً هـــو بكـــاء القلـــب حـــين صـــمتٍ وثبـــات ظـــاهري، الآن يفتقـــد يـــونس لـــذلك الثبـــات، الأســـابيع الأخيـــرة تبـــدو كأنهـــا إتخـــذت عهـــداً

على نفسها بأن تسلبه أغلى مَن يملك واحداً تلو الواحد، إبن عمه وأخيه الوحيد والآن والده، لم يحن القدر لحاله ولا يقول إلا ما يرضي الله.. " آمنا وإحتسبنا ولا إله إلا الله الدائم الواحد الأحد ". ظل يردد هذه الكلمات في نفسه للتخفيف عنها، يدُ عمه تربتُ على كتفه، وعن يساره إبن أخته والاثنين ليسوا أفضل حالاً منه.

عادوا إلى القرية منكسرين حزينين، ماجت القرية وضجت لوفاة العم حامد؛ قد كان أباً لمن لا أب له وأخاً لمن لا أخ له وإبن لكل كبار القرية، هذه نتائج الثار وعواقبه، بالرغم من أنهم لم يسعوا خلف الثأر كثيراً إلا أنه وجَّه لهم

تأديباً ودرساً قاسياً، لهم ولغيرهم ممن يُشعلون نار الثأر والعداوة، القصاص أفضل وأطهر للأرواح.. فذاك شرع الله ولن يأخذ إلا مَن أذنب فقط ولن يجر خلفه الكثير من الأبرياء. لقد فقد العم حامد إبن أخيه وإبنه والآن لحق بهم.. كل هذه الأرواح سببها شخص واحد وهو الآن في أحد الأماكن يبتهج ويضحك ولا يدري ما سبَّبَه من أحزانٍ خلفه،إنتهت مراسم العزاء بعد ثلاثة أيام ولكن مَن يُنهي عذاب يونس وأهله ويُطفيء تلك النار المشتعلة بقلوبهم؟

*****

" عامر "

عاد ليتفقد تلك المرأة وأبناءها وليرى إن كان يلزمهم شيئاً، لم يجدها في بيتها فأخذ القلق يسري في قلبه، رأته إحدى نساء الجيران جالساً أمام المنزل فسألته:

-السلام عليكم، هل أتيت لرؤية سعاد؟

قام من مكانه وهو يرد لها التحية:

-وعليك السلام ورحمة الله، نعم، هل تعلمين أين هي؟

-لقد ذهبت مع إبنها للدكتور، قالت أنه مريض بعض الشيء.. تفضل للمنزل وإنتظرها حتى تأتي!

-شكراً لكِ، سأجلس هنا.

ذهبت المرأة وأتى زوجها خارجاً من المنزل وإصطحب عامر لصالون منزله:

-لا تنتظر هكذا في الشارع، تعال للداخل لحين عودتها!

ذهب معه عامر بعد إصراره، قال الرجل:

-غريبة هي الحياة، هذه المرأة فقدت زوجها قبل ثلاثة أعوام وقد كان آخر طفل لها ما زال رضيعاً، لم تترك شيئاً إلا وعمِلت به، عملت بالخدمة في المنازل وببيع الشاي في الطُرقات والفول والتسالي في المدارس، ولكن المرض لم يسمح لها بمواصلة عملها.

-أين كل تلك المنظمات والجمعيات التي تزعم مساعدة الفقراء والمساكين؟

-بعضهم لا يلتفتون لمثل هذه الحالات، كل ما يجمعونه يذهب لأقارب موظفيهم، أنت تعلم كيف تسير مثل هذه الأمور في هذا البلد، والبعض الآخر يأتي ويقدم لها المساعدة ولكن سرعان ما تنتهي فتعود وأطفالها للعدم!

-والمنزل، هل هو ملكها، أم أنها تعاني ويلات الإيجار أيضاً؟

-ليس ملكاً لها ولكن صاحبه منحه لها بعد أن توفي زوجها وضاق عليها الرزق!

-قليل مَن هم مثله، جزاه الله خيراً.

ليت عامر يعلم أن هذا الرجل أمامه هو نفسه صاحب المنزل.!

-هل تقربها؟

-لا، ولكـــن شخصـــاً أرســـلني، قـــال أنهـــا كانـــت تعمـــل فـــي منزلـــه وإنقطعـــت عنـــه زمناً، أراد الإطمئنان عليها.

فـــي هـــذه الأثنـــاء دخلـــت علـــيهم زوجـــة صـــاحب المنـــزل وأخبـــرتهم بعـــودة المـــرأة، فإستأذن عامر وشكر الرجل ثم خرج.

إطمـــأن علـــى المـــرأة وأبناءهـــا ثـــم تنـــاول منهـــا الوصـــفة الطبيـــة لطفلهـــا وذهـــب وأحضـــر الـــدواء ثـــم عـــاد، وحـــين عودتـــه ترك لها مبلغاً من المال ثم ذهب.

ركـــب بســـيارته وإتصـــل بأخيـــه، لا يجـــد شـــيئاً يفعلـــه حينمـــا يكـــون حزينـــاً مُســـتاءاً ســـوى الاتصـــال بأخيـــه والتحـــدث معـــه، وقـــد كثُرت مكالماته له في الآونة الأخيرة.

" الدكتورة نور "

أرادت أن تُخـــرج شخصـــية نـــورا بـــت مـــريم وتعـــود إلـــى قريتهـــا لتُنهـــي كـــل تلـــك العـــداوة بيـــنهم وبـــين قريـــة ودحامـــد، لـــن تكتـــرث هـــذه المـــرة لـــرأي أهلهـــا فكـــل هـــذه المـــدة التـــي تـــركتهم فيهـــا وجـــاءت للمدينـــة كانـــت لأجـــل أن يقومـــوا بحـــل مشـــاكلهم دون أن تتـــدخل؛ هـــي تعلـــم أنهـــم لـــن يســـمعوا لهـــا إلا حينمـــا تشـــتد الأمـــور فيـــأتون إليهـــا بعـــد أن يُشـــار عليهـــا مـــن قِبَـــل كبـــار القريـــة، ولكـــن هـــذه المـــرة تـــركتهم جميعـــاً علهـــم يجـــدون مخرجـــاً مـــن ذلـــك النفـــق، ولكـــن مـــا هـــو واضـــح لهـــا أن النفـــق إزداد طـــولاً وظلامـــاً وتلاشـــى بصـــيص النـــور الـــذي كـــان فـــي المقدمـــة ويـــدل علـــى أنـــه النهايـــة.. لا تعلـــم

بعد بموت العم حامد، بل جميع مَن معها في المستشفى لا يعلمون، قد تكون قرية ودالبخيت قد علِمت بالأمر.

تسلل يوسف إلى فِكرها فدعت ربها وتمنَّت أن يكون بخيرٍ وعافية.. كادت أن تدمع عيناها ولكن صوت الطبيب جعلها تفيق من شرودها:

-كيف حالك يا دكتورة؟

إلتفت إليه بملامح يشوبها الحزن:

-بخير الحمدلله!

-أردتُ أن اخبرك أن عمك بحالٍ أفضل الآن ويمكنهما الخروج غداً معاً..!

-شكراً لك، لقد أتعبناك معنا.

-الشكر لله وحده، لولا لُطفه بهم لكانوا في حالٍ أسوأ الآن.

قال كلمته تلك وإختفى حيث أتى..
نهضت نور لتُطمئِن ذويها وأعمامها ولترى عمها عيسى بعد أن أخرجوه من غرفة العناية المكثفة.

قلبها أيضاً يحتاج لعناية مكثفة فتلك الفتاة لا تملك من القوة ما تشفع لها بمجابهة كل تلك المصائب، سِت وعشرون عاماً لم تلتفت فيها لحياتها إلتفاتة كافية، دائماً ما تركض خلف أهلها ولأجلهم، إنجازها الوحيد الذي كان لنفسها هو تلك الأحلام التي رسمتها بعد أن دخل يوسف إلى حياتها البائسة تلك، شعرت أنها وُلِدت للتو، أحسَّت بجناحانٍ على أطرافها يمكنّاها من التحليق كيفما وحيثما أرادت، كان

يوسف شمعتها الوحيدة وقد إنطفأت تلك الشمعة دون عِلمها.

في صباح اليوم التالي ودَّعت أهلها وعادت إلى المنزل، لم تشعر أنها بوضع يسمح لها بالذهاب للمستشفى ومباشرة عملها، أردات أن ينال جسدها قِسطاً من الراحة ثم تذهب بعد ذلك لمنزل يوسف وتطمئِن عليه، ولكنها تناست كل ألمها وتعبِها حينما وجدت ريم بالمنزل وقد تحول لونها لأصفراً وآثار البكاء والإرهاق بادية عليها.

ركضت إليها وهي تمسك بيدها وتسألها بهلع:

-ريم.. ماذا بكِ.. مما تشكين؟

لم تكن ريم تشكو من شيء بقدر ما تعيشُ بالإنابة عن صديقتها موجات الحزن والألم التي تنتظرها.

*****

" محمد "

أبلغ أصدقاءه أن ذهابهم للقريتين قد تأجل لبضعة أيام، أخبرهم بوفاة أحد الأشخاص ضحية هذا الصِراع وهو والد أحد الضحيتين الأوائل وعم الثاني.

أنشأ محمد هذه الجمعية قبل سنوات ليست بالكثيرة ولكن حقق نجاحاً باهراً،كانت فكرة خارج الصندوق فكل الجمعيات والمؤسسات الخيرية يكون معظمها لدعم الفقراء والمساكين أو ذوي الحالات الخاصة، ومع هذا نرى

الجوع ينتشر ويتمدد كالفراغ عبر الأُفق. ولهذا ذهب محمد بتفكيره إلى شيءٍ مُبتكر، يحتاجه الناس ويفتقدونه، ومن بين الكثير مما يعاني المجتمع منه وقف محتاراً، هو وحده لا يكفي لتغطية كل هذه المعاناة ومحوها، ولكن هذا لن يثنيه، لم يكن من نوع الأشخاص الذين يرون تراكم المهمات على ظهورهم فينامون دون إنجازها، التأخير لن يفعل شيئاً سوى تراكم المزيد والمزيد.. قرر البدء فقط، لا يهم من أين ولكن عليه أن يفعل شيئاً لشعبه ومجتمعه، ليس المسؤولون فقط هم مَن يجب عليهم خدمة الشعب، كل مواطن مسؤول عن أخيه، كل شخص يستطيع تقديم خدمة

للآخـــر، ولكـــن عـــدم الدرايـــة بإحتياجـــات الغيـــر أو عـــدم إلتفاتنـــا لهـــذه الإحتياجـــات والإكتـــراث لهـــا يجعلنـــا جميعنـــا فـــي صـــف واحـــد نلعـــن المســـؤولين لتقصـــيرهم، إن إلتفـــت كـــل شـــخص لأخيـــه وقـــدم لـــه شـــيئاً ولـــو كـــان بســـيطاً فلســـنا بحاجـــة لإنتظـــار الســـراب مـــن الحكومـــات.. علـــى هـــذا الأســـاس بـــدأ محمـــد فكرتـــه وقـــد كـــان أخـــوه إيهـــاب هـــو أول شـــخص دعمـــه بنفســـه ومالـــه، قـــرأ يومـــاً فـــي إحـــدى الصـــحف المحليـــة عـــن مشـــكلة أرضٍ زراعيـــة نـــتج عنهـــا مـــوت أحـــد الأشـــخاص وقـــد كـــان المالـــك الرســـمي لهـــا، طـــرح علـــى إيهـــاب مـــا يخـــتلج فـــي عقلـــه وهـــو أنـــه ســـيذهب لملاقـــاة أبنـــاء الضـــحية ويـــرى مـــا يمكنـــه فعلـــه، بعـــد

أن وجد قبولاً من إيهاب زادت شجاعته وثقته في نفسه فذهب خارج المدينة في رحلة بحث عن خلاص نهائي لتلك المشكلة. وجد أبناء المقتول من أولئك الناس الذين يعتمدون على هذه الأرض بعد الله في رزقهم وعيشهم، وبعد أن تأكد من أنهم مالكو الأرض الفعليين ذهب إلى الرجل الآخر وعرض عليه شراء هذه الأرض منه، لم يجد عنده أوراقاً رسمية تُثبت ملكيته للأرض ولذلك باعها له بثمنٍ بخس دفعه له شقيقه إيهاب ومنح الأرض لأصحابها.

كانت نقطة الصفر التي تنتظره لينطلق منها ونفّاجَاً لكثيرٍ من الخير الذي يعبُره ليقتحم براكين الشر.

أحياناً ما نقدمه للآخرين لن يعني شيئاً لنا ولن يخصم مِنّا مقدار ذرة ولكنه قد يكون حياة بأكملها للشخص الآخر. لم يكن ذلك السعر الذي دفعه محمد وشقيقه للرجل ليس سوى ثمناً لإنهاء تلك السيطرة الكاذبة على أرضٍ لا تخصه ولكن طغى عليه وعَمَاهُ الطمع وإستضعاف الآخرين وسلبهم حقوقهم.

*****

" يونس ود حامد "

بعد أربعة أيام من وفاة والده، كان يونس يجلس أمام المنزل وقد ضاقت به القرية رغم سِعتها، لم تكن القرية لوحدها، بل ضاقت به كل الدنيا.. يشعر بحُرقةٍ عنيفة في صدره حينما يتذكر

أخوَيـــهِ ووالـــده.. لـــم يلاحـــظ إقتـــراب إبـــن أختـــه عمـــر منـــه حتـــى أصـــبح يقـــف بـــين رأســـه، يـــراهُ ينـــتفضُ حينـــاً ويســـكن حينـــاً أُخـــرى، تهطـــل دموعـــه بغـــذارة، تـــذكر هـــذا الإنكســـار حينمـــا رآهُ علـــى وجهـــه للمـــرة الأولـــى قبـــل عـــدة ســـنوات، يعـــود الأمـــر لبدايـــة خلافـــه مـــع خالـــه وذلـــك حينمـــا جـــاءه يـــونس يعـــرض عليـــه طلـــب أحـــد أصـــدقاءه مـــن قريـــة مجـــاورة ليـــد ســـارة أخـــت عمـــر وهـــي بنـــت أخـــت يـــونس، تـــوفي والـــد عمـــر عنـــدما كـــان عمـــر لـــم يتخطـــى الرابعـــة مـــن عمـــره وكانـــت ســـارة رضـــيعة آنـــذاك، وعنـــدما طُلِبـــت يـــدها للـــزواج كـــان عمـــر قـــد تجـــاوز الثالثـــة والعشـــرين وقـــد أصـــبح وليـــاً لأمرهـــا بعـــد وفـــاة والـــده، فجـــاءه يـــونس

يستشيره في طلب صديقه، فقال عمر محتجاً بعد أن علِمَ هوية المُتقدم:

-لم يذكر لي أحد هذا الرجل بخير، جميعهم يتحدثون عن صفاته السيئة ومدى بطشه الذي طال حتى أخواته في المنزل.

كان يونس يعلم حقيقة صاحبه ويعلم أنه عكس ما قالوا عنه تماماً، لذلك وقف في صف صديقه محاولاً تنظيف صورته أمام إبن أخته:

-لا تلتفت لما يقولون، لا تُصدق ما لم تراه بعينك، ولا تثق بكل ما تراه بعينك أيضاً.. الحياة هكذا يا صديقي، هناك عدة زوايا للنظر؛ ما تراهُ أنت من زاويتك شيئاً، أنا أراهُ شيئاً مختلفاً من

زاويتي.. هنالك أشياء تراها بعينك فيُفسرها عقلك حسب رؤيته، وحينما يشرح لك شخص حقيقة الموقف، ستجد أن ما أملاهُ عليك عقلك هو مجرد روايات من خياله...

قام عمر من مكانه وكأن خاله لم يكن يتحدث معه:

-لا أريد أن أسمع شيئاً، ليست لدينا إبنة للزواج.

حينها ذهب يونس ولم يجد ما يقوله، لو كانت إبنة أخيه لإستطاع تزويجها لمن أراد، ولكنها إبنة أخته، والدها توفي ولكن أعمامها موجودون، وإن كان الرفض قرار أخيها فأعمامها لن يكونوا أفضل منه.

وجد صديقه في المنزل وقد تزامن مجيئه مع تلك الأحداث، جلس معه قليلاً حتى جاء عمر ولم يترك شيئاً إلا وقاله لصديق خاله، أمام مرأى ومسمع من خاله الذي تجاهل وجوده وتناسى إحترامه، نظر الرجل ليونس ولم يتفوه بكلمة، ولكن نظراته كانت تسأل يونس " هل هذا إبن أختك " ؟ بالتأكيد في تلك اللحظة سيكون ذلك الرجل ممتناً للظروف والأسباب التي لم تجعل من هذا الشخص البزيء أمامه نسياً له.. تمتم بكلمات وداع ليونس وخرج..

بعد خروجه كان يونس مطاطئاً رأسه، عمر لم يفعل شيئاً كهذا في حياته، هو دائماً يحترم الكبير والصغير ولكن

الماضي لن يشفع لِمن يُخطِئون؛ مهما كان الماضي عظيماً وجميلاً.. موقف وحيد يستطيع هدم كل تلك العظمة وبريقها، كانت صدمته بإبن أخته عنيفة بعُنفِ تلك الصفعة التي طبعها على خده حتى تهاوى عمر وسقط على أرضه..

الآن وعمر يقف على رأس خاله يونس ويتذكر كل ذلك الأسى والإنكسار الذي سببه له قبل عدة سنوات أمام صديقه، فاضت عيناه بدموعها، إنتبه ليونس الذي هبَّ واقفاً وركض داخل المنزل، إمتطى جواده وأطلق نفسه وحصانه وغضبه للرياح والمسافة التي تفصل بينه وبين قرية ودالبخيت.

" سُهى "

اليوم الثالث ولم يأتيها أحد، لا ريم أتت ولا يونس، إعتقدت أن الكل تركها بدءاً من والديها ومروراً بيوسف أخيها ويونس والآن ريم تركتها أيضاً، يكفي أنها لم تتركها لوحدها كما فعل يونس،ووضعتها عند أختها، هل هي أختها فعلاً.. ماذا إن كانوا كل هؤلاء أطفال تركوهم أهلهم هنا؟

لم يكُن عقلها يوماً كعقول الأطفال في عمرها، كانت دائماً تفكر بأشياء أكبر منها ومنطقها يُقارب لمنطق الكبار ومدى استيعابها لما هو أكبر من عقلها كان يثير إستغراب يوسف أخيها وإعجابه في ذات الوقت ولكن ربما تلك

المصاب التي ألّمت بها قد أضعفت قوى عقلها..

حزنها كان واضحاً إذ كانت تقضي كل وقتها وحيدة في أحد الأركان، شاردة تائهة، تبكي قليلاً وصامتة طوال الوقت، بينما كان الأطفال حولها يلعبون مبتهجون.

في غفلة من الجميع، خرجت من المنزل وذهبت لموقف الباصات وقد كانت تدرس شيئاً في بالها ولم يغب عنها إسم تلك القرية التي ذكرها لها يونس في أول يوم قابلته فيه.

ظلت تسأل عن موقف باصات قرية ودحامد وحينما يسألها الأشخاص عن أهلها أو بيتها تقول أنها من قرية

ودحامد وتريد الذهاب لهناك، ظلت تسأل كل شخص في السوق حتى إصطدمت بشخصٍ قال لها أنه سيأخذها لأهلها، ومن ثم أخذها لمنزله وأوصى زوجته عليها، لديه إبنان، أحدهما يدرس في الجامعة والآخر يعمل في التجارة مع صديقه وفتاة متزوجة تسكن مع زوجها في الحي الآخر الذي يجاورهم وأخرى في العشرين من عمرها. سألته الزوجة بإستنكار بعد أن تمعنت في ملامح الفتاة الحزينة:

-مَن هذه الطفلة يا حاج رضوان؟

-يا ولية، خذي هذه الطفلة للداخل ولا تبدأي الآن.. أطعميها وإهتمي بها كإبنتك.

قال كلامه وخرج عائداً إلى عمله. لم يكن في نوايا سُهى أن تقوم بمجرد تبديل للمنزل الذي تُقيم فيه، ولكن يبدو أن كل الظروف والإحتمالات تحول دونها والوصول ليونس، بالرغم من إقتناعها أنه تركها ورحل إلا أن صوتاً في أعماق روحها يحثها بالبحث عنه ويطالبها بعدم تصديق ما يجول في خاطرها وأن يونس تركها.. مَن يرى حزنها ومعاناتها لا يعتقد أن عمرها ثماني سنوات، ولكن الحياة لا تعترف بمقياس العمر، هي تصفع الوجوه فقط، دون إعادة النظر في الأعمار أو قدرة قدراتنا على المقدرة.

*****

"ريم "

إقتربت منها نور وهي ملقية على فراشها تضم رجليها إلى وسطها وتضع يديها بينهما وتنهمر دموعها، كانت حالتها يُرثى لها وتثير الهلع في قلوب مَن يراها، لم تجد رداً حينما سألتها ولكنها لم تجد بَداً من إخبارها أيضاً، لذلك قامت وجلست وسط الفراش وأمسكت بيدي نور،ثم نظرت داخل عينيها وأرادت أن تتحدث ولكن الكلمات أبت أن تخرج، ذهبت بنظراتها إلى الجدار وظلت تنظر للاشيء، سألتها نور مرة أخرى:

-هناك شيء كبير حصل، قولي ما الذي حدث، لم تبكين؟

كانت قد جمعت الكلمات في جوفها ثم نطقتها بصوتٍ أقرب للهمس:

-تلك المكالمة التي جاءتني حينما كنا معاً آخر مرة.. ،ثم سكتت..

حثتها نور على المواصلة:

-نعم أذكر، أخبروك أن أختك مريضة، هل أصابها شيء؟

-لا، لم تكن أختي.. لقد كذبت عليك.

شيء ما طرأ على عقل نور ولكن لم تُرِد تصديقه، علِمت أن الأمر يتعلق بيوسف، سألتها على الفور:

-هل هو يوسف؟

رفعت ريم عينيها لصديقتها وبدأت بالبكاء من جديد، أومأت برأسها أي نعم، قالت نور:

-وهل أصبح بخير الآن؟ كنتُ أعلم أن إختفاءه هكذا ليس إلا لأنه مريضاً، كيف أصبح الآن، كنتُ سأذهب لرؤيته بعد قليل.. هنا إنفجرت ريم ودخلت في نوبة بكاء، إحتضنت صديقتها ثم قالت وسط بكاؤها:

-يوسف مات يا نور، مات، يوسف مات.

كأنها تريد الإنتقام من تلك الكلمة التي ظلت تحاول قولها لها منذ خمسة أيام ولم تستطع، رددتها لها ثلاث مرات علها تستطيع أن تهزمها بنُطقها وترديدها. قالتها وعادت تبكي مرة أخرى، ولكنها إنتبهت لنور التي لم تُبدِ أي رد فعل، نظرت إليها فوجدت دمعة يتيمة ماتت على وجنتيها. قالت ريم:

-تلـــك المكالمـــة كانـــت مـــن شـــخص يـــدعى يـــونس، لا أعلـــم مـــا صـــلته بـــه ولكـــن كـــان معه وهو مَن دفنه.

تـــذكرت نـــور ذلـــك المـــريض الـــذي رأت حالتـــه حينمـــا كـــان الـــدكتور خالـــد غائبـــاً، المرافـــق اســـمه يـــونس والمـــريض يوســـف، إســـتوقفها الإســـم ذلـــك اليـــوم، تمنّـــت فـــي نفســـها لـــو أنهـــا ذهبـــت يومهـــا وتأكـــدت مـــن الملامـــح، ليتهـــا لـــم تتوقـــف علـــى الاســـم فقط، لربما تمكنت من رؤيته قبل موته.

أردفت ريم:

-ذهبـــتُ ووجدتـــه ينـــازع روحـــه، كـــل حديثـــه كـــان عنـــكِ، آخـــر كلماتـــه كانـــت أنـــتِ، قـــال أنـــه لـــم يُـــرِد الإتصـــال بـــكِ لخوفـــه عليـــك، لـــن تحتملـــين رؤيتـــه فـــي تلـــك الحالـــة. كـــان

خائفاً عليكِ عندما تسمعين بخبر موته وأراد أن يوصيني عليكِ.

هنا إنفجرت نور في البكاء، ظلت تبكي لساعات، لم تفلح ريم في تهدئتها فتركتها تستفرغُ حزنها ووجعها عبر دموعها ولكن الدموع لن تُجدي. كانت تبكي أوجاعها السابقة، تلك التي حدثت قبل يوسف والتي أتت بعده، وتبكي يوسف نفسه. أكثر ما كان يُحزنها هي أنها لم تعلم بوفاته إلا بعد خمسة أيام ولم تَرَهُ في آخر أيامه، قد يكون إفتقد صوتها بين الزائرين في المقابر، خمسة أيام ولم يسمعها تدعي له فوق رأس قبره وتخبره بإشتياقها له، سيحسب أنها نسيته.. ليت الراقدون تحت التراب

يعلمون بحقيقة ما يحدث فوق التراب في غيابهم، ليتهم يعلمون ما حجم المعاناة التي نعيشها بَعدهم في بُعدِهم، وليتهم يعلمون أننا لم ننسى أبداً.

*****

" عامر "

كان عامر يجلس وسط عدد من الأطفال في إحدى البنايات التي ما تزال تحت التشييد ويستغلها الأطفال لينعموا ويستريحوا عليها، كان يحدثهم ويسمع منهم، يغنون تارةً ويمدحون تارة أخرى، يصفقون ويرقصون، يضحكون ويقهقهون، جلسوا في شكل دائرة كأنهم عدداً من المصابيح التي تُضيء وتتلألأ بأصواتهم وضحكاتهم وعامر وسطهم

كالشمس التي يستمِدون منها الضياء،

سأله أحدهم بعد أن ساد الصمت بينهم:

-عم عامر، ألا ترغب بالزواج؟

تفاجأ عامر من سؤاله وأجاب وسط دهشته،بسؤالٍ آخر :

-لديك عروس لي؟

أجابه الطفل بشيءٍ من العزة والفخر:

-لو كانت لدي أخت لزوجتها لك بأبسط شيء.. كما يوصي الشرع مثلما أخبرتنا.

حاول عامر أن يتذكر متى أخبره بهذا ولكن الأمر لم يفلح، لقد كان يجلس معهم ويحدثهم عن شتى الأمور ولا سيما الدين، أكثر مما كان يجلس مع نفسه..

قال لمُحدِثهِ:

-لا بـــأس، ألســـت بـــأخي؟ إذاً ســـتأتي إلـــى زفاف أخيك وتشاركني.

صاح الجميع:

-ونحن؟

ضحك عامر ثم قال:

-جمـــيعكم ستحضـــرون، ســـآتي بنفســـي لآخـــذكم.. والآن إبحثـــوا لـــي عـــن عـــروس فقط وسأقوم بالباقي.

كلهـــم قـــالوا إنهـــم ســـيبحثون، هـــم لا يعلمـــون أنه يمزح وهو لا يعلم أنهُم جادّون.

جـــاءه إتصـــال مـــن إيهـــاب يـــدعوه إلـــى منزلـــه، أخبـــره أنهـــم يُقيمـــون حفـــلاً صـــغيراً للأقارب والأصدقاء.

" فى قرية ودالبخيت "

بعـد أن إنتشـر نبـأ وفـاة العـم حامـد فـي القريـة، أصـابهم الهلـع، يعلمـون أن قـريبهم عيسـى هـو مَـن قتلـه وكـان قـد توعـد بقتلـه وفعـل.. مـنهم مَـن قـال أن قريـة ودحامـد إن سـكتت علـى مقتـل أثنـين مـن أبناءهـا فإنهـا لـن تسـكت علـى مقتـل العـم حامـد، ومـنهم مَـن كـان يـرى أن الصُـلح قـد صـعب أمـره بعـد الآن.. بعـد جـدل والكثيـر مـن الاقتراحـات والآراء،دعـى شـيخ القريـة جميـع الشـباب إلـى ميـدان القريـة، شـدد علـى الشـباب الصـغار فقـط، لا يريـد شخصـاً عمـره تعـدَّى الثلاثون عاماً، قال عيسى ساخراً :

-هل تريد خوض حرباً بهؤلاء الأطفال؟

رمقه الشيخ بنظرات ساخنة غاضبة وقال له:

-أنت وأبناء أخيك سبب كل هذه المصائب، وإن جاءت القرية على رأيي لسلمناكم لهم وليفعلوا بكم ما أرادوا،إصمت ولا تدعني أراك.

أراد عيسى أن يرد عليه ولكن نظرات الأهالي له ألجَمتهُ، علِم أن رأيهم مثل رأي الشيخ، هو في نفسه كان يعلم أنه وأبناء أخوه مَن أخطئوا وقد ندِم أشد الندم حينما سمع بوفاة العم حامد ولكن غروره أبَى أن يجنح.

هو يرى أنه خاض حرباً ولا مفر من إنهاءها كيفما كانت نهايتها، وعندما كان ينازع روحه هناك كان يتمنى أن يخرج

من هنا وسيذهب للصلح بنفسه، هذه هي النفس البشرية، عندما تكون على الحافة تتمنى أن تجد فرصة أخرى لتفعل الصواب، وعندما تأتيها الفرصة تمضي في ذات الطريق الوعِرة.. الغرور طغى عند عيسى فحوَّل العداوة التي صنعها أبناء أخوه إليه وأصبحت مسألة شخصية عنده، فإنسحب من القوم وتجمعهم وذهب إلى بيته، أخذ سيفه وسلاحه وتسلل خارج القرية التي كانت فارغة آنذاك، فكل أهلها كانوا في الميدان في حضرة الشيخ.

*****

" يونس ودحامد "

لـم يأبَـه لنـداءاتِ إبـن أختـه مـن خلفـه حتـى إبتعـد عنـه وتـوارى خلـف الغبـار الـذي يثيـره حصـانه، شـيئاً فشـيئاً حتـى إبتلعتـه المسـافات وأصـبحت رؤيتـه خلـف السـراب كنـارٍ متوهجـة خلـف حـائط زجـاجي تتمـوج كيفما أرادت لها الريح.

وحينمـا إقتـرب مـن التلـة رأى شـبح رجـلٍ يهـبط منهـا قادمـاً نحـوه، لـم يُعيـره إهتمامـاً فقـد كـان يريـد ذلـك الـذي قتـل والـده وإن إقتضـى الأمـر لحـارب القريـة عـن بكـرة أبيهـا حتـى يصـل إليـه.. وحينمـا إقتـرب مـن الرجـل وبانـت لـه ملامحـه عَرِفَـهُ علـى الفـور، أيُّ حـظٍ ذلـك الـذي أحضـره إليـه لوحـده وبعيـداً عـن قريتـه؟ ولكـن يـونس لا

يرغب بهذا، أراد قتله وسط قريته وأمام أهله ليعلموا أنهم سكتوا عن مقتل أثنين من أبناءهم ليس خوفاً منهم ولكن خوفاً على أهلهم من سفك دماءهم.

أصبح يزيد من سرعته حتى يلتقيه، أراد أن يطفيء تلك النار بداخله متناسياً الوعد الذي قطعه لوالده وهو في آخر لحظاته، تأتي على الإنسان لحظات يكون فيها أعمى وأبكم وأصم، لا يعي شيئاً.. يكون عقله قد أغلق على فكرة محددة لا يريد سواها متناسياً عواقبها وأبعادها.. لم يفكر يونس في عواقب ما يريد فعله وأي رد فعل ستقوم به قرية ود البخيت، ولكن بالنسبة له فقد طفح الكيل، لابد من وضع حدٍ لتلك العداءات وإن فشل الحل

السلمي وجلسات الصُلح سيسعى هو للحل بالطريقة التي يعرفونها؛ ليعلموا أنهم ليسوا أقل منهم بأساً ولا قوة، كل الأقفال التي يستصعب فتحها بالهدوء ستفتحُ مُجبرة إن تعرضت للضرب، إقترب الرجلان من بعضهما وكل منهم عرف هوية الشخص الذي يدنو منه وتأكد منها.. خلت الأرض إلا منهما فقد جمعتهم الظروف لوحدهم بعيداً عمن أرادوا إشعال النار بينهم ومَن أرادوا إطفاءها، أثنان لا ثالث لهم، أحدهم ملؤه الغيظ والغبط والغرور،يخوض حرباً لا يملك فيها مثقال ذرة والآخر تملؤه نار غاضبة حزينة تُشعل دواخله، أحياناً يكون الحزن هو السلاح الأعظم

والمحـــرك الأول الـــذي يـــدفع المـــرء لفعـــل أشياء بعينها.

أخـــرج الرجـــل ســـلاحه ووجهـــه صـــوب يونس ثم أطلق النار.

*****

" محمد "

كـــان يتحـــدث عبـــر الهـــاتف حينمـــا دلـــف الـــى المنـــزل، رأى فـــي الصـــالة طفلـــة أمـــام التلفـــاز مـــع أختـــه رزان، تفـــرس فـــي ملامحهـــا جيـــداً، لـــم يراهـــا أبـــداً قبـــل هـــذه المـــرة، أمعـــن النظـــر بهـــا وقـــد أغلـــق الهـــاتف، ملامحهـــا جميلـــة بـــذات درجـــة الحـــزن الـــذي يكســـوها، شـــعرها الأســـود يســـتلقي علـــى رأســـها بـــدلال ينتهـــي إلـــى ربطـــة فـــي مـــؤخرة رأســـها، لاحظـــت هـــي

وجـــوده فإلتفتـــت إليـــه، رأى عينيهـــا وقـــد كانتـــا جميلتـــانٍ لحـــد الدهشـــة والتعجُـــب، عينـــانٍ ســـوداوتانٍ تشـــعانِ حُزنـــاً وبريقـــاً، دنـــى منهـــا وجلـــس بجانبهـــا فأوجســـت فـــي نفســـها خِيفـــةً منـــه، بَسَـــطَ يـــده مصـــافحاً فمـــدت يـــدها متـــرددة وهـــي تنظـــر فـــي عينيهِ، داعبها قائلاً:

-القمرُ بذاته جالس في بيتنا؟

إرتاحـــت دواخلهـــا قلـــيلاً بعـــد أن لاحظـــت شـــيء مـــن البهجـــة فـــي صـــوته، لـــم تجيبـــه بشيء فعاد وسألها:

-ما إسمك يا صغيرتي؟

قالت بصوتٍ طفولي ناعمٍ:

-سُهى!

-هـل أخبـرك أحـدهم مـن قبـل أنـكِ جميلـة كإسمك تماماً؟

أجابـت نافيـة بحركـةٍ مـن رأسـها فإسـتطرد محمد:

-هـا أنـا أخبرتـك الآن، أنـتِ جميلـة جـداً. ماشاءالله الخالق.

-متـى جئـت، دعـك مـن التغـزل بالفتـاة وإذهـب لتغيـر ملابسـك وأنـزل فقـد إتصـل أخيك وقال أنه قادم ومعه عامر ..

إلتفـت محمـد ليجـد والدتـه خلفـه وفـي يـدها صحنٍ من الفشار والمقرمشات.. أكملت:

-كنـتُ أريـد مشـاهدة فيلمـاً مـع سُـهى ورزان لحـين عـودتكم ولكـن يبـدو أن خطتنا قد فشلت.

-عساه خيراً!

صعد إلى غرفته، ثوانٍ قليلة حتى لحقته أمه.. عَلِمَ ماذا تريد فقال قبل أن تتحدث:

-أقسم لك يا أمي أنني لستُ جائعاً.. يمكنني إنتظار إيهاب ونفطر جميعاً .

كان يعلم مدى حب أمه ودلالها له، هو أيضاً متعلق بها كثيراً، رغم كبره في السن إلا أن العلاقة بينه وبين أمه توحي للغير بأنه ما زال طفلاً صغيراً، سألها قبل أن تقول شيئاً:

-من هذه الفتاة؟

-أباك أحضرها، لم يقُل لي شيئاً سوى أن أهتم بها.. لا أعلم شيئاً وهي لا تتحدث، بالكاد عرفتُ إسمها.

قال لها محمد مداعباً كعادته:

-يبدو أن والدي قد تزوج دون علمنا وتلك الفتاة أختي الثالثة.

قالت دون إكتراث وهي تلتف لتخرج من الغرفة:

-ذلك أفضل لنا، ولكن مَن ستقبل به؟

ضحِك محمد وعاد إلى إخراج بعض الملابس التي سيرتديها من الخزانة.

*****

" الدكتورة نور "

جلست على طرف السرير بعد أن إستنذفت كل دموعها، كانت تضعُ رأسها على كفيها وتغطي وجهها بهما، أزاحتهم عن وجهها وقالت تخاطب ريم التي جلست بجانبها تُربِتُ على كتفها

وتحتضنها وتبكي معها، أو ربما كانت تخاطب نفسها وتذكرها به:

-ما زلتُ أذكر أول مرة قابلته بها، كان مُمَدداً على فراش المستشفى بغرفة الإنعاش، لقد طلب مني الدكتور خالد أن أراجع حالته ومؤشراته الحيوية، وقفتُ فوق رأسه أنظر إلى جمال خَلقهِ، كانت آثار المرض واضحة على ملامحه ولكن وسامته لم تتزحزح، كان وسيماً جداً، عيناهُ السوداء التي كان يفتحهما بين الحين والآخر بإعياء، سواد شعره ونعومته، ملامح وجهه بلونها الأسمر ولحيته المرسومة كشكلٍ هندسي فاق الجمال. كنت واقفة أنظر له وأشعر بضعفه أمام المرض، فعلتُ ما طلبه مني

الـــدكتور وخرجـــتُ دون أن ألتفِـــت إليـــه مـــرة أخـــرى، توالـــت الأيـــام حتـــى أصـــبح مريضـــي بعـــد أن ذهـــب الـــدكتور خالـــد فـــي إجـــازة زواجـــه، أصـــبحنا نتحـــدث معـــاً، نجلـــس معـــاً أكثـــر، أحيانـــاً نـــذهب لمقهـــى المستشـــفى وأحيانـــاً نخـــرج.. كنـــتُ أشـــعر بحبـــه لـــي مـــن نظراتـــه وكـــان يعلـــم أننـــي أحبـــه، مـــن لهفتـــي وخـــوفي عليـــه.. كـــل تصـــرفاتي كانـــت تـــوحي له بأنني أحبه...

توقفـــت عـــن الحـــديث وأجهشـــت فـــي البكـــاء ثم قالت تواصل وسط نحيبها:

-فـــي يـــوم مـــن الأيـــام جـــاء إلـــي وأخبرنـــي بحُبـــه لـــي.. قـــال " لا أعـــدك بشـــيء حتـــى إن لـــم أتمكـــن مـــن فعلـــه لا أكـــون قـــد خـــذلتك، ولكـــن أعـــدك بـــأنني ســـأفعل لأجلـــك كـــل مـــا

أستطيع فعله، وسأجلب لكِ كل ما تريدينه إن كان بمقدوري جلبه، وإن لم يكن بإمكاني إحضاره لكِ فأريدك أن تلتمسي لي العذر، أعدك أنني سأفعل كل الممكن لأجل دوام ضحكتك وإبتسامتك وسأحيى لأجل هذا الهدف.. أحبك "

لم تستطِع المواصلة فأطلقت العنان لصوتها الباكي ولدموعها وتشنجاتها وأنين قلبها وإرتمَت في حضن صديقتها منكسرة حزينة. يتألم القلب ويتصدع عند الفراق، الموتُ أسوأ الأقدار وأوجعها، ما يُعانيه المرء بعد رحيل مَن يُحب لا يضاهيه عذاب، يبكي بعد رحيله كثيراً ويبكي كلما تذكرهم ولكن الحقيقة هو يبكي حاله بَعدهم، يُعزِّي روحه

بالبكاء، ولكن لا البكاء يُعيدُ مَن رحل ولا الحُزن يُجبرُ ما إنكسر. جميعها طقوس وعادات يمارسها القلب حينما ينكسِر، لا تُسمن ولا تُغني عن ألم وإشتياق.

*****

" عمر "

لم يُخبر أحداً بذهاب يونس إلى القرية الأُخرى، بل عاد وإمتطى جواده هو الآخر وذهب خلفه، لم يهدأ باله طول الطريق، غِشاهُ خوفٌ رهيب على خاله، يخشى عليه من أولئك القوم وإن كان يعلم أن خاله بإمكانه هزيمة أربعين رجل لوحده، ولكن هذه قرية بأكملها، بشيبها وشبابها، نساءها وحجارها وأشجارها، ويونس وحده.. في ذات الوقت كان

يخشى مما سيفعله خاله بهم، فهو يعلم أن خاله يونس لا يلتفت لشيء حينما يسيطر عليه الغضب، ولا يلتفت لشيء حينما يتعلق الأمر بأمه وأبيه فهم عنده خط أحمر لا يجب تخطيهِ، ماذا إن قُتِل أبيه؟ لا شيء يمكن أن يوقفه، وإن كان قد أخبر القرية بما فعله يونس كانوا سيذهبون خلفه ولن تنجو قرية ودالبخيت من هذا الحزن الغاضب؛ لذلك فضَّل اللحاق به لوحده.. ظل يدعو الله لأجل أن يستطيع اللحاق به قبل أن يفعل شيئاً.

سيقف أمامه اليوم مرة أخرى، تذكر تلك الصفعة التي تلّقاها منه في آخرة مرة وقف في وجهه أمام صديقه، عندما

كســـره وذلَّ صـــديقه أمامـــه وقـــد كـــان ضـيفه، لـم يتحـرك ولـم يفعـل شـيئاً، بعـدما ذهـب صـديقه جـاء وصـفعه بقـوة وقـال لـه: ـ " لستُ خالك ولا أنتَ مني "

ومنـــذ ذلـــك اليـــوم لـــم تجتمـــع أيـــديهما فـــي ســـلامٍ أبـــداً.. أدرك عمـــر حجـــم مـــا فعلـــه بعـــد اســـبوعٍ فقـــط، كـــان فـــي ذلـــك الوقـــت مـــدمن خمـــرٍ فتخلـــى عنـــه بعـــد أن عاقبـــه خالـــه بمقاطعتـــه لـــه، ثـــم ذهـــب لمنـــزل صـــديق يـــونس فـــي قريتـــه وإعتـــذر منـــه وعـــرض عليـــه الـــزواج مـــن أختـــه ولكـــن الأخيـــر رفـــض، كمـــا لـــم يفلـــح أبـــداً فـــي نيـــل رضـــاء خالـــه يـــونس ومســـامحته لـــه، ولـــم يعُـــد يشـــرب الخمـــر منـــذ ذلـــك الوقـــت. الخمـــر هـــو عدو الإنسان الأول بعد نفسِه.

ضرب في أذنه صوت طلق ناري فعلِم أن خاله تعرَّض للهجوم؛ إذ كان يعلم أن يونس لا يملك سلاحاً نارياً، زاد خوفه وتمنى لو أنه يُحلق لينزل أمام خاله، زادت ضربات قلبه وخفقانه وطالت المسافة أمامه، زاد في دعواته وإلحاحه، الله وحده مَن يستطيع إخراجهم من هذا الليل الدامس الذي حل بهم.

*****

" عامر "

تعطلت سيارته بالقُرب من السوق الخاص بالمدينة، ترجل منها بعد أن لاحظ لمؤشرات الوقود لديه ووجدها منخفضة، حاول أن يتذكر آخر مرة زوَّد

فيها سيارته بالوقود، كان هذا منذ ثلاثة أيام، حاول الإتصال بإيهاب فوجد هاتفه مغلقاً، لا يمكنه فعل شيء سوى أن يذهب عبر سيارة أجرة ويعود لسيارته لاحقاً ومعه الوقود، أخذ حاجياته من السيارة ووقف بجانبها ينتظر مجيء سيارة تاكسي، إقتربت منه سيارة من ماركة " تايوتا " ووقفت أمامه، أنزل صاحبها نافذته وقال لعامر متسائلاً:

-خيراً؟

أجابه عامر وقد إرتسمت بسمة على شفتيهِ:

-خير خير، نفد الوقود فقط.

دائماً يتحدث عامر إلى مخاطبه والبسمة تُزيّن محياه، قريباً كان أو غريباً، تراه

دائماً يبتسم حتى في حالات حزنه الشديد.

ذهب الرجل بسيارته للأمام حتى أخرجها من الطريق ثم ترَّجل منها، فتح صندوق السيارة الخلفي فأخرج منه إناء وقودٍ كبير يكفي لملء السيارة، رفعها وأخذ معه خرطوماً وجاء ناحية عامر، قال عامر متعجباً شاكراً:

-لا تتعب نفسك، فقط يكفي أن توصلني لمحطة الوقود التي في الأمام وسأكون شاكراً.

لم يخاطبه الرجل بل أخذ المفاتيح من يده وتخطاهُ ثم ذهب للسيارة، فتح القفل على مخزن الوقود ثم سحبه بالخرطوم وانتظر حتى فرغ الإناء وسط نظرات

عامر وإندهاشه. قال الرجل وهو يُعيد المفاتيح لعامر:

-دائماً أحمل معي هذا الجالون الكبير لمثل هذه الحوجات، المرء لا يدري متى وأين ينفد منه الوقود أو متى يجد من يحتاجه.

طلب منه عامر أن يذهب معه للمحطة ويُعيد تعبئة هذا الجالون.. قال الرجل:

-لا أأخذ شيئاً منحته لشخص، وقد منحته لك.

-ولكن هذا...

-إنه من عند الله!

إبتسم عامر حينما سمِع هذه الكلمات،شكر الرجل مرة أخرى وعاد وركِب سيارته ثم توجه لمحطة الوقود،

مـــلأ جالونـــاً كبيـــراً ووضـــعه فـــي مـــؤخرة السـيارة وهـو يـردد كلمـات الرجـل " المـرء لا يـدري متـى وأيـن ينفـد منـه الوقـود أو متى يجد من يحتاجه ".

كـل أفعـال المـرء لغيـره تـدور حـول دائـرة حتـى تعـود إليـهِ، مَـن فعـل خيـراً سـينال مثلـه ومَـن فعـل شـراً سـيتجرع مـن ذات الكـأس. حقيقـة كونيـة ثابتـة. إبتسـم عـامر بعد أن مرت على ذهنه هذه الخاطرة.

*****

" عيسى "

جمـيعهم خـائفون، يريـدون الصُـلح؟ تبـاً لصـلحٍ مـع هـؤلاء، اليـومُ إمـا أنـا أو ذلـك الـذي يُـدعى يـونس، ومـع نُطقـه لأسـمه وجـده أمامـه مُقـبلاً نحـوه، هـا قـد أتـت

الفريسة، لم أكن أتوقع أن الصيد سيكون بهذه السهولة، لقد خالفت النعجة القطيع وسينالها الذئب،ظل يركض نحوه حتى إقترب منه بالقدر الكافي فرأى الشرر يتطاير من عينيه، شعر بخوفٍ عظيم في قلبه حتى كاد أن يتراجع ولكنه عوضاً عن ذلك أخرج سلاحه وصوبه نحوه ثم ضغط الزناد فدوى صوت السلاح عالياً، تطايرت الطيور فوقهم وحلقت عالياً، الدخان المتصاعد من فوهة السلاح يتمايل بكل الإتجاهات، ولكن يونس ما زال يُقبل نحوه فبحركةٍ سريعة إستطاع تفادي الرصاصة وقد أتت على ساعده الأيمن فخدشته ومرَّت،علِم عيسى أن هذه نهايته ولكنه أراد أن يأخذ يونس

معه فرفع يده وصوب السلاح عليه مرة أخرى ولكن هذه المرة كان يونس قد إقترب منه فرماهُ بسيفه وسقط السيف والسلاح ويدٍ مبتورة تُقطرُ دماً بجانب رجلٍ يمسك بيساره نصف يدٍ سالت منها الدماء. أراد عيسى أن ينهض فداست عليه أقدام الفرس حتى كاد أن يموت.. بعد قليل وجد يونس عند رأسه وقد أخذ سيفه بيده ووضعه فوق اليد الأخرى وسأل عيسى:

-هل هذه ذات اليد التي ضربت أبي بها؟

لم يكن وضعه يسمح له بفعل أي شيء؛ يدٌ في الأرض والأخرى في قبضة غريمه.. رفع يونس يده وهوى بها على ساعِد عيسى فألحقه الساعد الأول ومن

ثم حمله فوق حصانه وحمل أطرافه المبتورة ومضى به نحو قرية ودالبخيت يتقطر دمه وتتسلل روحه من جسده رويداً رويداً مع كل قطرة دم تُعانق الرمال. هنا فقط طرأ على بال عيسى حال أبناءه من بعده وعاوده الندم على كل تلك الخطوات التي كان بالإمكان عدم القيام بها، عاد ضميره يؤنبه بعد أن تخلى عنه قبل قليل وقذفه في بحرِ الغرور والتعالي.. علِم وقتها أنه هو النعجة التي خالفت القطيع، في تلك الأحيان غلبته بذرة الشر التي بداخله، يولدُ الإنسان وداخله بذرة خيرٍ وبذرة شر، بأفعاله يُنَمّي إحداهن حتى تغلب الأخرى فيغدو طَيباً أو شريراً. لا يولد

المـــرء مـــن رحـــم أمـــه مكتـــوب علـــى جبهتـــه شـــريراً أو طيبـــاً؛ كـــل هـــذا تـــداعيات الحيـــاة ونتيجـــة طُـــرقٍ ســـار بهـــا بمحـــضِ إرادتـــه.. ولا بَـــد مـــن تلقـــي العقـــاب، فـــي الـــدنيا.. أو الآخرة.

*****

" الدكتورة ريم "

كـــان الجـــو فـــي المنـــزل الـــذي تقـــيم فيـــه مـــع صـــديقتها نـــور مشـــحوناً بـــالحزن الشـــديد، رَوَت لهـــا نـــور مـــا حـــدث فـــي القريـــة مـــن إصـــابة أعمامهـــا ونقلهـــم إلـــى هنـــا، هـــو موســـم الأحـــزان بالنســـبة لصـــديقتها، وهـــي بـــدورها تعـــيش ألمهـــا وتتقاســـمه معهـــا، الصـــديق الجيـــد هـــو مَـــن يبكـــي لحزننـــا قبـــل أن تتســـاقط دموعنـــا، مَـــن ينكســـر لإنكســـارنا

ومَن يمد يده له قبل أن نسقط بالشكل الكامل. لم يُخطيء يوسف حينما أوصى ريم بصديقتها؛ فهو في تلك الفترة الوجيزة عرف قدر ريم وعرف أيضاً أنها صديقة جيدة.

وسط ذلك الحزن والصمت الذي يخيم على الغرفة إلا من النحيب وأصوات شهقات نور، رن هاتف ريم لتجدها أختها، ردت عليها فأتاها صوتها مليئاً بالهلع والأسف:

-ريم، سُهى مفقودة من الصباح!

نهضت ريم من مكانها وهي تقول:

-ماذا؟ ماذا يعني مفقودة؟

رفعت نور رأسها تنظر إلى صديقتها في عدم إستيعاب، قالت ريم لشقيقتها:

-لقد تركتها معك لأنك تملكين أطفالاً وستعتني بها، الآن تقولين لي إنها مفقودة؟ أين كنتِ أنتِ؟

أغلقت ريم الهاتف دون أن تسمع شيئاً آخراً من أختها، نظرت إلى نور التي لم تجف عيناها من البكاء، أخبرتها بقصة سُهى أخت يوسف وما حدث لها في المستشفى، كانت نور تزداد بُكاءًا مع كل كلمة تسمعها من ريم، تنظر إليها معاتبة كما تنظر ريم لنفسها، فتعود نور وتتذكر أنها لم تكن في نطاق وصول ريم لتخبرها بكل هذه الأحداث، فتعود وتبكي مرة أخرى، كانت أياماً مشحونة بالحزن والبكاء والآلام بالنسبة للصديقتين، الأخبار المُفجعة تأتي واحداً تلو الآخر،

المصائب لا تأتي فراداً ولكن بالنسبة لنور وريم فهي تأتي جماعاتٍ جماعات.

*****

" يونس "

عبر شوارع القرية التي تكاد تنعدم من السُكان حتى وصل إلى شرقها حيث رأى جميع الأهالي مجتمعون في ميداناً وقد شكلوا حلقةً كبيرة، مضى بإتجاههم وما أن رأوهُ حتى ضجوا وعلت أصواتهم، يرى الكِره في أعينهم، بعضهم قذفه بالحجارة، شق صفهم حتى أصبح في مركز الدائرة حيث يجلس شيخ القرية وبعض كبارهم.. قال بصوتٍ جهور بعد أن ألقى نصف الجثة التي أتى بها أمامه:

-نحنُ لا نسعى خلف الثأر وإن كنا نريد لفعلنا ذلك منذ أول جريمة إرتكبها أبناؤكم في حقنا، ولكننا لا نريد أن نتسبب في مقتل أناس أبرياء، أشخاصٌ كُثُر من الطرفين سيموتون والسبب هو وقوفهم خلف أهلهم، بغض النظر عمن هو المخطيء، لم نسكت خوفاً منكم ولكن خوفاً على أهلنا وأبناءنا، أما الآن فقد زاد الأمر عن حده..

إرتفع صوت وسط الحضور يقول:

-هل جئت لتهددنا وسط أرضنا؟

لم يعيره يونس إهتماماً وواصل:

-هذا قريبكم، وقد قتل والدي، لقد نسيتُ كل ما مضى ولكن هذا الأمر لن أنساهُ، كنتُ قادمٌ إلى هنا لآخذ حقي منه فوجدته

فـــي منتصـــف الطريـــق وقـــد كـــان يقصـــدني، هـــذا ســـلاحه وهـــذهِ يـــده التـــي أطلـــق بهـــا النـــار علـــي والأخـــرى هـــي التـــي ضـــرب بهـــا أبـــي علـــى رأســـه.. ،رمـــى الســـلاح علـــى الأرض بجانـــب عيســـى ورمـــى كلتـــا يديـــه، إنشـــق صـــف الجماعـــة مـــرة أخـــرى فظهـــر عمـــر علـــى ظهـــر جـــواده، جـــاء حتـــى وقـــف بجانب يونس في صمتٍ تام..

أردف يونس:

-لا أقصـــد التقليـــل مـــن شـــأنكم ولكـــن إن أردتُـــم أن تحســـبوه هكـــذا فـــأنتم أحـــراراً فيمـــا تظنـــون، لقـــد أتيـــت لأقتلـــه فـــي أرضـــه مثلمـــا قتل أبي في أرضه.

ســـاد الضـــجيج فـــي المكـــان وركضـــوا مـــن كـــل صـــوب ناحيـــة يـــونس وإبـــن أختـــه الـــذين

ترّجلوا من أحصنتهم شاهرين سيوفهم ووقفوا ثابتين، جاء الشيخ وبحركة سريعة وقف أمام يونس وعمر وعاونه بعض الرجال ممن كانوا يجلسون بقربه فشكلوا طوقاً حول الرجلين ثم بدأ الشيخ بتهدئة قومه حتى تراجعوا وقال:

-قتلتم حامد فجاءكم ابنه لوحده، وأشك أن أهله يعلمون أنه هنا، لو علِموا لما جاء وحيداً أو بصحبة شخص واحد، ولكن بما أنه هنا، دعونا نجلس معاً ونجد حلاً لهذا الأمر..

*****

" الدكتورة نور "

كانت قد خرجت من المنزل بصحبةِ ريم وذهبتا معاً لمنزل شقيقة الأخيرة بعد أن

قدمن بلاغاً بفقدان فتاة صغيرة في قسمٍ للشرطة. في الطريق إلى منزل شقيقة ريم ورد إتصال لنور وقد كان من عمها، أخبرها فيه بما حدث للعم حامد وما فعله عمها عيسى مؤخراً وأن يونس أحضره مبتور الأيدي ويريد أن يقتله، أخبرها بكل ما حدث في القرية وما يحدث حتى لحظة هذا الإتصال. أغلقت الخط ولا تجد شيئاً تفعله سوى العودة للقرية والآن.

أصرَّت ريم على الذهاب معها.. لم تشأ أن تتركها لوحدها بالرغم من محاولات نور لإبقاءها هنا والبحث عن سُهى، لم تلتقي نور بسُهى سوى مرتين أو ثلاث حينما كان يحضرها يوسف معه لملاقاتها، لم تكترث ريم لطلب نور فهي

تعلم أن هذا الوقت نور تحتاجها فيه أكثر مما مضى وفي الأخير نجحت بإقناعها بالذهاب معها.

*****

" عامر "

إجتمع جميع أهل المنزل حول مائدة الطعام، ظل عامر ينظر إلى الطفلة أمامه والتي قال والد إيهاب أنه وجدها ضائعة في السوق فأحضرها للمنزل، يتأمل ملامحها البريئة ونظراتها، كان قد جاء لمنزل صديقه إيهاب بناءًا على طلبه منه وقد أخبره أنهم يقيمون حفلاً صغيراً، جاء ولم يجد أي حفل ولا سبب لهذه الجلسة سوى أن عامر لم يكن سيأتي دون سبب، تحايل عليه إيهاب ليحضره

للمنزل بعد أن كثُرت أسئلة والدة إيهاب عن عامر، وأراد أيضاً أن يُخرجه من أجواء العمل والحزن الذي يعيشه، هو لا يعلم ما الذي يفعله عامر في وقته وهو لا يمر على العمل كثيراً ولكن يراهُ في الأوقات القليلة التي يمر فيها عليه، يبدو حزيناً بائساً.

طاولة خشبية عريضة تلتف حولها سبع مقاعد، جلس على رأسها والد إيهاب وفي الطرف الآخر جلس إيهاب وفي يمينه صديقه عامر ويساره أخوه محمد بجانبه مُنى أخته وتليها سُهى في المقعد المجاور لوالد إيهاب من يمينه، وفي يساره جلست الوالدة وبجانبها إبنتها الصُغرى رزان ثم عامر.

كان قد مضى على عامر وقت طويل جداً لم يجلس فيه جلسة عائلية كهذه، بل لم يجلسها أبداً فالعائلة التي عرفها كانت تتكون من أخيهِ فقط.

كانت محاور الحديث مختلفة، تحدثوا عن السياسة والرياضة والتاريخ والمال والأعمال.

قال والد إيهاب يسأله:

-لقد أحضرتني من عملي قائلاً أن الأمر مهم،ألن تتحدث؟

نظر الجميع لإيهاب وهم ينتظرون خروج الكلمات من بين شفتيه ليعلموا ما هذا الأمر الهام الذي أعاد من أجله والده من عمله ودون مقدمات أو تمهيد قال

إيهاب لوالده وهو ينظر في عيني صديقه عامر:

-أبي، أُريد أن أزوِّج أختي رزان من عامر.

دهشة أصابت الجميع، صمتٌ ممزوج بترقبٍ خيَّم عليهم، نظر عامر إلى صديقه نظراتٍ متساءِلة معاتبة، فهو لم يتحدث معه أبداً في موضوع زواج، نظرت الفتاة إلى أخيها مندهشة مصدومة وهي لا تعلم مَن الذي طلب الزواج، هل قال له عامر شيئاً أم أخيها من تلقاء نفسه طرحها عليه، جاء صوت عامر مليء بالهدوء:

-كنتُ أريد التحدث في هذا الأمر معكم ولكنني تأخرتُ منتظراً عودة أخي عمار

ولكن بما أن إيهاب قد فتح الأمر فيُسرني أن أتقدم لطلب يد إبنتكم للزواج منها على سُنة الله ورسوله.

قامت رزان وركضت للداخل وقد باتت تعلم الآن أنه يريدها فعلاً. إرتسمَت بسمة خفيفة على محيا والدتها وأخيها إيهاب الذي وضع يده فوق يد صديقه ونظر إلى أبيه ينتظر كلماته، قال الأب:

-لا أرى فيك شيئاً يُعاب وقد قال النبي ﷺ " مَن أتاكم ترتضون دينه وخُلقُهُ فزوّجوه " أنا لا أجد سبباً للرفض وبما أن إيهاب هو مَن أتى معك وطرح هذا الأمر فهذا يعني أنه مطمئنٌ لأختك معك، يتبقى فقط أن نعرف رأيها هي، نظر لزوجته نظرةً فهِمَت مغذاها فنهضت

وتبِعتهـــا مُنـــى وتوجهـــوا لغرفـــة رزان..

وقـــت قليـــل حتـــى ســـمِعوا صـــوت الزغاريـــد يصـــدح بالغرفـــة فإبتســـم والـــد إيهـــاب وقـــال لعامر:

-مبارك!

بعـــد الإفطـــار كـــان عـــامر وإيهـــاب يجلســـون في حديقة المنزل، قال إيهاب:

-هل سيأتي عمار؟

-أخبرنـــي بـــالأمس أنـــه ســـيأتي الشـــهر المقبل، سيمكث شهراً ويعود.

-إذاً الزفاف بعد شهر!

-إن شاءالله!

جـــاء محمـــد بصـــحبة سُـــهى وقطـــع حـــديثهم طالبـــاً مفـــاتيح الســـيارة مـــن إيهـــاب، ســـأله إيهاب:

-إلى أين أنت ذاهب؟

-سأخبرك لاحقاً، لا وقت لدي الآن.

أخـــذ منـــه المفـــاتيح وخـــرج، إلتفـــت إيهـــاب للـــداخل ليجـــد والدتـــه فـــي بـــاب المنـــزل ومعهـــا أبيـــهِ، ســـألهم عمـــا حـــدث بالـــداخل ولكـــن أحـــداً لا يعلـــم، قـــالوا أنـــه كـــان يتحـــدث بالهـــاتف إلـــى شـــخص مـــا، فســـمعت سُـــهى إســـم مكـــانٍ ذكـــره للشـــخص الـــذي يتحـــدث معـــه فقالـــت لـــه أنهـــا قريتهـــا، فأخـــذها مـــن يدها وخرج.!

محمـــد عبـــر الهـــاتف وهـــو يقـــود الســـيارة وبجانبه سُهى :

-هـــل الجميـــع معـــك؟ حســـناً أنـــا قادم،ســـنذهب الآن، الأحـــداث تطـــورت فـــي القريـــة، لابـــد أن نذهب الآن. أنا في طريقي!

" يونس ود حامد "

كانوا يجلسون في الميدان ينتظرون عمر وقد أرسله يونس لنداء عمه يونس من القرية ومعه أشخاص آخرين من كبار قرية ود حامد. كانوا أهل قرية ودالبخيت قد أخذوا عيسى لمركزهم الصحي ليوقفوا نزيفه بعد أن ساءت حالته وشارف على الموت. الشمسُ تقترب من وسط السماء وتزدادُ حرارتها شيئاً فشيئاً، ولكن الجو بين القريتين مشحوناً بالحرارة حتى حين غروب الشمس، تلك الشعلة التي إشتعلت قبل شهرٍ أو أقل ما زالت نيرانها تحرق الطرفين، سيتحملون حرارة الشمس للتخلص من حرارة العداوة وعواقبها.

جاء أهل يونس فجلسوا بجانبه، قام الشيخ وبدأ الحديث بعد أن رحب بهم، تحدث عن العلاقة بين القريتين في الماضي وكيف أصبحت في الحاضر، ذكر ما فعلته نورا بت مريم حول تسليمها لأبناء عمها لشرطة المدينة في محاولة لحقن الدماء، وما فعلوه أهل قرية ودالبخيت في سبيل الصُلح، ثم قال:

-ولكن ما فعله عيسى مؤخراً قد زاد الأمور سوءاً، لا أقول أنه قد لقيَ جزاءه بحيث أن أطرافه قد قُطِعت ولكن ألا يجب أن ينتهي هذا الأمر؟

نظر أهل يونس ودحامد إليه، رمقه عمه يونس بنظرات طويلة ومن ثم نظر

لعُمر، لا يعلمون شيئاً عن عيسى وكيف قُطِعت يداهُ فلم يخبرهم عمر أبداً.

إقتربت سيارتانٍ من ميدان القرية، أخذت إنتباه الجميع حتى الشيخ، سيارة نزلت منها نورا بت مريم وصديقتها ريم، والأخرى وصلت بعدها بثوانٍ ونزل منها مجموعة من الأشخاص ومعهم طفلة صغيرة والتي ركضت إليها ريم تحتضنها وتُقبلها، لم تراها نور فقد إتخذت مكانها خلف الشيخ منذ وصولها، رأتها لاحقاً بين يدي ريم فإطمئنت وإرتاحت دواخلها، ثم رأت الفتاة تفلت من صديقتها وتركض وسط الرجال لترتمي بين أحضان شخصٍ لم يأخذ عقلها وقتاً في إسترداد ذكراهُ، كان ذلك

الشخص الذي رأته في المستشفى وتحدثت معه في مكتبها، الإن تأكدت أن يوسف ذاك هو يوسف حبيب قلبها نفسه ويونس الذي كان يرافقه هو يونس ودحامد؟ معقول؟ ولكن ما العلاقة التي تجمع يوسف بيونس، لم يسبق أن ذكره يوسف لها أبداً، أسئلة كثيرة كانت تجول بذهنها وتعلم أن لا شخص يمكنه الإجابة عليها سوى يونس ويبدو هذا ضرب من المستحيل فهو عدو أهلها إن لم يكن عدوها.

تقدم أحد الأشخاص الوافدين مؤخراً ودنى من الشيخ وإستأذنه ليتحدث، بعد أن حيى الجمع وسلّم عليهم عرَّف عن نفسه قائلاً:

-إسمي محمد رضوان حسن، سأروي لكم قصة قصيرة.

" قبل ثلاث سنوات، في أحد الأمكنة،رجلان تشاجرا، فجاء شقيق أحدهما وقتل الرجل الذي تشاجر مع شقيقه، في صباح اليوم الثاني كان الشخص القاتل وشقيقه الذي تسبب بالشجار وجميع أهل بيته قد قُتلوا بعد أن قتلوا ثلاثة ممن هجموا عليهم "

تحدث أحمد وهو أحد أصدقاء محمد:

-هذا هو الثأر، شرارة الإنتقام التي يُشعلها الغضب، ماذا كان سيحدث لو إنتهى شجار الرجلان بالتسامح؟ ربما كان جميع مَن ماتوا موجودين حتى اليوم!

تدخلت ملاذ وقالت:

-دعك من هذا يا أحمد، أنا أعرف شخصاً قد ذُبِحوا أبناءه وكانوا أطفالاً، بسبب شيء لا علاقة لهم به، ومع ذلك فقد عفى والدهم حقه، أراد بعض من أهله أن يثوروا فقال لهم " هل ستتحملون ذنب كل مَن يمت بسبب هذا الأمر؟ أنا فقدتُ أطفالي وعشتُ هذا الألم، لا أريد أن يعيشه شخص آخر بسببي ".

خيَّم الصمت على الأرجاء، توارت الشمس خلف غيمة وحجبت حرارتها، نسيمٌ بارد هبَّ، أصبح اليوم كأحد أيام الربيع، قال محمد بعد أن رأى حُسن الإستماع:

-دعونا لا نذهب بعيداً، هنا في هذه القرية، قد قتل شخصٌ منكم شخصاً من قرية ودحامد ولم يثوروا ضدكم، بل جلسوا للصُلح، بعد فترة وجيزة قتلتم منها شخصاً آخر فلم يثوروا وجلسوا للصلح، ذهبتم بأنفسكم وسلمتم أبناءكم للقانون فلم يتابعوا هم الأمر حتى أُطلق سراحهم وذهبوا بعيداً عن هنا، قبل أيام قتلتم العم حامد، الآن إن ثار أهل قرية ودالبخيت وجاؤوا ليقتصوا منكم حق ثلاثة من رجالهم، هل هم مخطئون؟ فلنقلب الموازين ونحسب أنهم هم مَن فعلوا هذا بكم وقتلوا ثلاثة منكم، هل كنتم ستسكتون وتغضون نظركم عن حق أبناءكم؟

صَـمَتَ قلـيلاً ليسـمع رداً ولكـن حتـى الطيـر فـي السـماء كـان صـامتاً، جميـع الحضـور رأسـهم للأسـفل لـم يتفـوه أحـدهم بكلمـة واحدة، فإستطرد:

-ومـع هـذا، هـاهم الآن، يجلسـون بيـنكم، قـد أتـوا إلـيكم ليطلبـوا مـنكم السـماح والعفـو، و أؤكـد لكـم أن هـذا لـيس خوفـاً مـنكم وتعلمـون هـذا جيـداً، قـد تتسـاءلون مَـن نحـنُ وكيـف نعلـم بكـل هـذه الأشـياء ولكـن هـذا لـيس مهمـاً الآن، نحـن مجـرد أُنـاس يسـعون لحقـن الـدماء فـي كـل بقـاع الأرض، دعـوني أسـألكم سـؤالاً: أمَـا آن لكـم أن تجنحـوا للسِـلم؟ قبـل أن تُجيبـوني تـذكروا قولـه تعـالى: " وإن جنحـوا للسـلم فاجنح لهم ".

تنحى محمد قليلاً وأفسح المجال للشيخ ولكن نورا وقفت أمامه وقالت:

-لقد قلت لكم قبل هذه المرة، أن هذه العداوة لن تُقدمنا ولن تزيدنا إلا خسارة، لقد خسرنا ثلاثة من رجالنا، من رجالنا نعم، فنحنُ وقرية ودحامد سواء، هم جارنا القريب وأهلنا وسندنا عندما نسقط، إن خسرناهم فهذا يعني أننا سنعيش لوحدنا ومخطيء مَن ظن أنه سيستطيع العيش لوحده،أرضنا مع أرضهم، زراعتنا بجانب زراعتهم، مصالحنا متبادلة ودمنا واحد، فلينتهي هذا الأمر الآن رجاءًا،نظر إليها يونس ملياً وهو يحاول تذكر هذه الملامح وأين رآها قبل اليوم ولكنه لم يفلح،كان جميع

أهل ودحامد قد أتوا لقرية ودالبخيت،تداخلوا بين الصفوف حتى أصبحوا واحداً، رجل من ودالبخيت يقف بجانبه شخص من ودحامد، دون أن يدركوا ذلك، تقدم يونس وقال:

-لقد قُتل أبي وأثنين من أخوتي، وأشهد الله وأشهدكم أنني قد عفوتُ حقي، فلا تضربوني ولا أضربكم. وهذا عمي، والد أحد المقتولين وعم الثاني وأخ الثالث، وكل هؤلاء أهلي، بإسمهم جميعاً أقول أننا قد عفونا،عمت التكبيرات المكان حتى تزلزلت الأرض، تعانَق الجميع كأنهم في ساحة مطار يستقبلون ضيفٌ عائدٌ بعد سنوات، كان ذلك الضيف هو السلام المنتظر.

جاء أحد الأشخاص وأناخ جملاً وسط الحضور ثم قال:

-إنه من عمي عيسى، لقد أرسله وقال لكم، لا تدعوا ضيوفكم يذهبون دون أن تكرموهم.

جلس الناسُ في شكل جماعات متفرغة، بذات الخليط الذي كانوا يقفون به، بعضٌ من هنا وآخرون من هناك.

نظرات طويلة متبادلة بين نورا ويونس،لم يتأكد هل كانت تنظر له أم تنظر لسُهى بين أحضانه، لمح في عينيها حزناً عميقاً، رآها تقترب منه حتى جاءته، سلَّمت عليه وأخذت سُهى بين أحضانها ثم بدأتا بالبكاء معاً.

إستغرب يونس بكاء سُهى مع نورا، من

أين تعرفان بعضهما؟ ولكن الإجابة أتتهُ ما إن رأى ريم تقترب من نورا وتحاول تهدئتها، رمقته ريم بنظراتٍ غاضبة فقال لها:

-مالك تنظرين هكذا، هل قتلتُ لك شخصاً؟

-كيف طاوعك قلبك أن تترك طفلة كهذه وحيدة في المستشفى؟ بل تركتها وحيدة في عالم بأكمله!

تذكر يونس كيف ومتى أضاع سُهى فقال لريم موضحاً:

-في ذلك اليوم، نُقل أبي للمستشفى، لقد فقدتُ عقلي حين رأيته، لم أتذكرها إلا صباح اليوم التالي فبحثتُ عنها ولم أجدها، ذهبتُ لمنزلها فلم أجدها أيضاً

وعندما عدتُ للمستشفى وجدتُ أن والدي قد توفي!

-أنا آسفة، تقبله الله!

-لا بأس، آمين.

جاءهم صوت نورا:

-هل تعرفون بعضكم؟

قالت ريم: أخبرتك أن شخصاً ما إتصل بي وأخبرني بحالة يوسف أليس كذلك؟

كان يونس ذلك الشخص.

قال يونس: لقد تقابلنا من قبل حضرة الطبيبة!

قالت نور:نعم نعم، تذكرت.. ولكن لم أعلم أبداً أنك يونس ودحامد نفسه.

-ولا أنا علِمتُ أنكِ نورا بت مريم بذاتها، دعيني أعترف لك أن مواهبك كثيرة

ماشاءالله، مَن كان يحسب أن تلك الفتاة التي تُرى في المزارع تفتح مجرىً للمياه هي دكتورة في مستشفى المدينة؟

لو علِمتُ أنكِ ذات الفتاة لتزوجتك هناك.

إحمرَّت وجنتاها خجلاً ولكنها سرعان ما تذكرت يوسف وعاد إليها ذلك الحزن، قال لها يونس بعد أن لاحظ الحزن في عينيها:

-عيناكِ جميلتين للحد الذي لا يليق به الحزن.

لم تقُل شيئاً حتى ظن أنها لم تسمعه، جاءهم محمد وقال لسُهى:

-أرى أنكِ نسيتني! هل هذه والدتك؟

لم تستطع نورا حبس دموعها أكثر فأطلقت لها العنان وركضت مبتعدة عنهم

وتبِعتهـــا ريـــم، شـــعر محمـــد بـــالإحراج فنظـــر إلـــى سُـــهى علهـــا تشـــرح لـــه مـــا حـــدث فقالت:

-هذه نور، كانت خطيبة أخي!

أحـــس بمـــرارة وحـــزنٍ فـــي صـــوتها وهـــي تنطـــق كلماتهـــا الأخيـــرة، صـــعق يـــونس الـــذي مـــا زال واقفـــاً بينهمـــا، نـــورا بـــت مـــريم خطيبة يوسف؟ عجباً لهذه الأقدار!

قال محمد لسُهى:

-وأين هو أخاكِ، هل هو في القرية؟

-لا، لقد توفي!

ألجمَـــت هـــذه الجملـــة محمـــد فلـــم يســـتطِع قـــول شـــيء بعـــدها، طلـــب يـــونس مـــن سُـــهى أن تـــذهب لـــريم قلـــيلاً وبقـــيَ هـــو مـــع محمـــد وإنضـــم لهـــم بقيـــة أصـــدقاء محمـــد، شـــكرهم

يونس على مجيئهم وما فعلوهُ قبل قليل، ثم جلسوا بعد ذلك يتبادلون الحديث، روى له يونس ما حدث مع يوسف وما جمعه به هو وسهى، أخبره محمد أن سُهى تقول أنها من قرية ودحامد، تأثر يونس من قولها هذا فقال:

-هذا صحيح، فلم يبق لها أحد سواي وقد تركها أخوها أمانة عندي، ثم أنني أحبها حُباً جمّاً،قام يونس وذهب للشيخ،وقف يتحدث معه قليلاً ثم ذهب بعد ذلك لعمه.

جاءت نورا وريم وسُهى وجلسن مع محمد والمجموعة ولكن سرعان ما جاء الشيخ وطلب من نورا أن تأتيه قليلاً فقال لها:

-يونس ودحامد يطلب يدك للزواج.!

إنصدمت من طلبه، لم تُجب الشيخ بشيء، أشارت لريم أن تأتي فإرتمت في أحضانها باكية مرة أخرى، جميع الفرص الجيدة تأتي في التوقيت الخطأ، كم من شخص جيد تقدم لخطبة فتاة وكان قلبها في حالٍ لا يسمح لها بالإرتباط، إن وافقت تكون قد ظلمته وهي تعلم أن قلبها في مكان آخر، وإن رفضت لن تجد سبباً لتُبرِر به ذلك الرفض، شعرت بيد سُهى الصغيرة تشد على يدها، نظرت إليها ودنَت منها فمسحت سُهى دموع نورا بيدها، وقف يونس يراقبهما من البُعد فتذكر لقاءه بسُهى لأول مرة وهي تمسح دموعه

بكفيها كما تفعل مع نورا الآن، ما زالت سُهى فاقد الشيء الذي يعطيه وبوَفَرة.

إقترب منهن وهمس لنورا:

-تزوجيني ولنمسح أنا وسُهى دموعك طيلة حياتنا ولنمسح أنا وأنتِ دموع هذه الصغيرة.

قالت له:أنت تعلم أنني كنتُ...

قاطعها: دعي الماضي للماضي، سأنتظر إلى أن يتعافى قلبك، وحتى ذلك الحين لستِ مطالبة بشيء!

ذهبت وأخبرت الشيخ بموافقتها ثم غادرت الميدان.

لم تكن تعلم تماماً مدى إستعدادها لمثل هكذا خطوة ولكنها وافقت، لم تثق كثيراً بالوقت ولم تتيقن أنه كفيلٌ بمحو

جروحهـــا، ولكنهـــا تثـــق بالحـــب، فـــإن أحبهـــا يـــونس فسيســـتطيع أن يُنســـيها كـــل تلـــك المواجـــع ويزيـــل عـــن قلبهـــا حـــر ذلـــك الهجيـــر ويمـــلأ ســـماءه بـــالغيوم، بالحـــب والريـــد تنـــدثر كـــل الجـــراح وتغـــدو الحيـــاة ســـهلة آمنـــة طيبـــة، هـــذا العـــالم يفتقـــدُ للحـــب ويحتاجـــه كحاجـــة المـــريض للـــدواء وكحاجـــة المســـافر للـــدعاء وكحاجـــة الســـائل للإناء.

إقتـــرح شـــيخ القريـــة أن تُقـــام مبـــاراة كـــرة قـــدم هنـــا بـــين القـــريتين بينمـــا يـــتم تجهيـــز الغـــداء، وســـرعان مـــا أحضـــروا الكُـــرات والملابـــس وقـــام يـــونس بإختيـــار فريـــق مـــن أهلـــه المتواجـــدون هنـــا وتســـلَّم زيّـــاً مـــن قريـــة ودالبخيـــت ثـــم بـــدأت المبـــاراة التـــي

كان حكم الوسط فيها محمد وأحد حُكام الراية أحمد والآخر مجتبى، أما الحكم الرابع المهتم بالتبديلات فقد كان عمر. إنضمت ملاذ وبقية الفتيات لنورا وريم في صفوف الجمهور،إنتهى شوط المباراة الأول بهزيمة قرية ودحامد بثلاثية نظيفة، وبين الشوطين جاءت سُهى ليونس تقول له:

-نورا تقول لك إن خسرت في هذه المباراة فلن تتزوجك!

قالت كلماتها هذهِ وركضت عائدة حيث أتت، راقبها يونس حتى إستقرت بين يدي نورا، رفع نظره إلى خطيبته فوجدها تتوعدهُ بسبابتها،ذهب يونس

لأعضاء فريقه وتحدث معهم قليلاً وشجَّعهم ثم عاد لموقعه.

بدأ يونس الشوط الثاني بذات التشكيلة ولم تمضي دقيقتانِ حتى تمكن فريقه من تسجيل الهدف الأول، ثم دقيقتان بعد ذلك وجاء الهدف الثاني ومضت المباراة وبدأت تزداد حرارة بعد مضي كل دقيقة حتى جاءت الدقيقة الثلاثون فأحرز فريق قرية ودحامد التعادل، ليعودوا ويسجلون هدف الفوز عند الدقيقة الخامسة والأربعين، وفي الدقيقة الأخيرة من الوقت المحتسَب بدل الضائع تمكنوا من إحراز الهدف الخامس لتنتهي المباراة لصالح يونس بنتيجة خمسة أهداف لثلاثة، نظر إلى نورا بعد صافرة

الحكم، نظرة توعدٍ فلم يبدُ منها إلا أن دسَّت وجهها خلف جسدِ سُهى.

بعد الغداء طلب شيخ القرية حضور المأذون وأقام مراسم عقد القرآن بين يونس ودحامد و نورا بت مريم وقام بدفع الصِداق من جيبه،لم يتركوا لها الوقت لتحزن على موتِ خطيبها، فاليوم علِمَت بالأمر و اليوم تُخطب وتتزوج.

تُوفيَ والده قبل أربعة أيام وجاء إلى هنا للإنتقام وهاهو يعود وقد تزوَّج، ولسُهى الفضل الأكبر بعد الله في تلك العلاقة؛ فقد كانت الرابط المشترك وهمزة الوصل بينهما.

قال يونس أن الزواج سيُقام بعد سنةٍ من الآن. هي فترة كافية لكلاهما، الأثنان

يمتلآنِ بالمواجع والآلام ورأى يونس أن هذه الفترة كفيلة لجعل نورا تستعيد جزء من عافية قلبها لو هي ساعدت نفسها وأرادت أن تنسى، لينسى المرء ما يُحزن قلبه عليه أن يتناسى؛ فالتناسي أول خطوات النسيان. والنسيان ما هو إلا بداية جديدة مؤجلة.

جلس الشيخ بعد العقد مع يونس مصطفى عم يونس ودحامد ومعهم محمد وصديقيه أحمد ومجتبى، يتناولون الشاي الأحمر ويتجاذبون أطراف الحديث، قال العم يونس موجهاً حديثه لمحمد وأصدقاءه:

-لم تخبرونا من أين تحصلتم على كل تلك المعلومات!

أجابه محمد بإبتسامته المعهودة:

-نحن في الجمعية أكثر من عشرون شخصاً، والعشرين هؤلاء لكل شخص مئتان يخبرونه بالقضايا التي نهتم بها.

زوجة صديقي من هذه القرية، إسمها فوزية محمد آدم محمود.

قال الشيخ:أجل عرِفتها.. هي إبنة ذلك الرجل.

وأشار لأحد الأشخاص المارّين أمامهم..

قال محمد:لقد كانت تخبر زوجها وهو صديقي بما يدور هنا، وهو يعلم أننا نعمل على حل مثل هذه القضايا، فأخبرني بها وأردنا من صميم أفئدتنا أن نضع حداً لهذا العداء.

سأل الشيخ:وما إسم هذه الجمعية؟

-إسمها.. نفاج ريد..!

تـزوج عـامر مـن رزان بعـد شـهر وقـد كـان معظـم ضـيوفه مـن أطفـال الشـوارع، وهـم مَـن وقفـوا علـى كـل الأعمـال والترتيبـات للزفاف.

عـادت نـورا إلـى عملهـا بالمدينـة وعـادت إليهـا شخصـية نـور مـرة أخرى،تصـالح يـونس مـع إبـن أختـه عمـر بعـد ذلـك اليـوم في قرية ود البخيت.

تـزوج إيهـاب ومـلاذ بعـد خمسـة أشـهر مـن زواج أخته رزان من عامر.

عـاد عمـار ليرتـدي شـعار وطنـه بعـد أن لفظـه المنفـى وسُـحبت منـه الجنسـية وذلـك لأنـه أهـدر ركلـة جـزاء فـي إحـدى

النهائيات وإتهموه بالإرتشاء، تقبَّلهُ حضن الوطن كما يفعل دائماً.

في إحدى زيارات محمد وأهله لسُهى ويونس في قريته رأى محمد سارة أخت عمر فأُغرم بها وطلبها للزواج. سيقام الزفاف بعد زفاف يونس وعمر بشهرين.

تمت خُطبة عمر وريم بعد خمسة شهور من خطبة يونس ونورا وسيُقام الزفافان في توقيتٍ واحد و تسكن الصديقتانِ في منزلين متجاورين! رغم أن ريم تكبر عمَر بأعوام إلا أن الحب لا يعرف فارق العُمر،إرتادت سُهى مدرسة القرية وتقضي وقتاً طويلاً تتحدث مع نورا

وريم ورزان عبر الهاتف الذي أهدته لها نورا.

لقد عاشت نورا نبوءة يوسف حينما أخبرها ذات مرة " هناك أيام وردية كوجنتيك قادمة، وفري هذا العناء لها، لن تكون كل أيامك هكذا، لابد لثغرك أن يبتسم! "

مات يوسف وهو لا يعلم أن نور هي مَن كانت تدفع تكاليف علاجه!

كانت تعتقد أنها لن تستطيع أن تفتح قلبها لأحد آخر سواه وها هي الآن بعد ثلاثة أشهر فقط تُغرمُ بيونس.

الحب.. هو الباب الوحيد الذي لن يسلم من عبوره أيُّ شخصٍ.

تَمَّت بحمدالله

نفاج ريد

تدور أحداث الرواية بين عداوة صُنعت بين قريتين، قامت إحداهما بقتل شخص من القرية الاخرىٰ، وحينما كان أهل القتيل في جلسة صلحٍ وعفو مع أهل القاتل، قام ذات الجاني بقتل إبن عم الضحية الأولىٰ لتكون هذه الجريمة الثانية في ثلاثة أيام.

ثارت القرية وضجت تندِد بالثأر ولكن وقف إبنهم يونس ودحامد وهو شقيق القتيل الثاني، لقد كان يعلم أن الثأر سيأخذ معه الكثير من الأبرياء من الجانبين.

كما كانت نورا بت مريم من القرية الاخرىٰ وهي إبنة عم القاتل، تفعل كل ما بوسعها لأجل ألا تتصادم القريتان في عراك